في مغاصات لآلئ باشراحيل

عبد الرحمن طيبا بعكر
الحضرمي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى سليمانِ هذه المغاصات وهدهدِها. أخي الدكتور عبد الولي عبد الوارث الشَميري. مندوب اليمن في الجامعة العربية:

أتـــدري كـــم صـــبـــاحـــاتِ جمـــيـــلـــه
حـبـتـنـيـهـا مـغـاصـاتي الـكـحـيـلـه

أفـــرفـــشُ كـــالـــنـــوارس فـــي ضُـــحـــاهـــا
وآصـــــالاً كـــأحـــلى «دانـــتـــيـــلـــه»

وبـــين شـــعـــاب مـــرجـــان الـــشـــواطـــي
صـبـايـا الـبـحـر مُـذْهـبـةُ الجـديـلـه

وفـــــي الأعـــــمـــــاق درٌّ شـــــارقـــــيٌّ
ومـــاسٌ «بُـــوســـتـــوانيّ» الـــفـــصـــيـــلـــه

إلى إبـــريـــز «هـــكـــمـــانٍ» وأغـــلى

عـقـيـقٍ فـي الـشـمـاريـخ الأصـيـلـة

عبد الرحمن طيب بعكر الحضرمي

صباح الثلاثاء: ١٦ جمادى الأولى ١٤٢٤هـ

١٥ يوليو ٢٠٠٣م

فنّية عاليةٌ ناشدةٌ الكمال

ماذا عساك أن تقول وأنت تقف أمام منارٍ وُلد بمهوى أفئدة المؤمنين ومثاب الراكعين الساجدين العاكفين الطائفين (مكة) سنة ١٩٥١م وتلقى دراسته الجامعية بالقاهرة من مصر وأخذ دراسته العليا بالفلبّين حيث نال الدكتوراه. ذلكم هو الدكتور عبد الله محمد صالح باشراحيل. رأمَ الشأن العائلي مع أبويه الكريمين ثم حبّا فزيجة فإنجاباً للأولاد ومنهم جاء الحفيدات والأحفاد ولكل واحد منهم مكانة هي القلب في القلب. أعرق في الشأن التجاري الذي كان أبوه من كبار فرسانه وترقَّت به عصاميته حتى صار رئيساً لمجلس شركات باشراحيل ومديراً لمستشفى أبيه بمكة. وأعرق في الشأن الاجتماعي احتفاءً بأقدس وطن قبل كل الأوطان هو مكة التي اضطلع بكبريات الشؤون فيها على تنوع الأنشطة

الاجتماعية من برٍّ وإحسان وإعراس جَماعي وإدارة لأندية فروسيتها حتى كاذان يحملها على ظهره كهذه المعمورة على ظهر (أطلس) في الميثولوجيا اليونانية ـ فهو وهو وهو... إلى آخر ما لا يستوفيه إحصاء ـ ثم هو رغم ضخامة العبء ـ ظل متواصلاً مع نازعته الفنيَّة العالية فأصرَّ على فتح أشرعة زورقه الشعري لكل الرياح. وجاء بكمية ذات كيفية شعرية تشرح الصدر وتسهم إسهاماً بارزاً وفاعلاً في أعراس الأمة وأحزانها. فكان لذلك الطموح الشاغف في حياته المثمر لأكثر من رائعة أدبية أن تذكِّرنا بأسطورة الحصان المطبوع على فيض من الطموح لا ينتهي، ولم يسعهُ إلا أن يقف أمام خالقه سبحانه ناشداً مزيداً من فيوضات الكمال. (شكا الحصان خلقته إلى رب الأرباب (زيوس) على عادة الأساطير اليونانية. وقال وهو يقترب من عرش الرب: يا خالق الإنسان والحيوان إنَّ الناس تقول إنَّ الخيل من أجمل الحيوانات التي زيَّنت أنت بها الدنيا وأنا أؤمن بالذي يقولون. ومع هذا هل وقف بك التحسين يا رب الأرباب عند هذا. أليس لنا عندك نحن معشر الخيل أحسن مما صنعت؟ فقال الرب: ماذا تريد أن

أصنعه بك لتزيد حسناً. فقال الحصان: لعلي أكون أسرع في الجري لو أنَّ سيقاني طالت وانفتلت ولعلَّ صدراً أوسع وأرحب يزيد في قوتي ولعلّ رقبتي إن طالت فلن تعدم جمالاً ثم إنك قضيت عليَّ في قديم حكمتك بأن أحمل الرجال فما عليك ألا تصنع من ظهري برذعة تليق بالأكرمين من بني الناس. فقال ربّ الأرباب: إذن فصبراً لحظة واحدة تنل بعدها ما تريد. وما نطق الرب بكلمة كن حتى كان ما أراد. بغتة وقف أمام عرش الرب مخلوق غريب الخلق عجيب إنَّه الجمل) أ.هـ

انفلاقة الكاذي

وبين الشعراء والزهور تماثل بأكثر من وجه شبه أبرزها وأقواها أنها بإشعاعية الأصداء والأشذاء تتجدد حيوات الأحياء صُعُداً إلى الأعلى من مراقي الجمال والكمال ومن الزهور ما تتفتَّق أزراره على إيقاعات القَطر في الغياهب الساجية وعلى برودة أنداء الفجر الهانية غير أنَّ شجرة من ذات الروائح العابقة هي الكاذي تأبى أن تخرج عرائسها البيضاء المستكنّة في قلبها إلاَّ مع وميض البرق سيوفاً تشق الأفق فتُبرِز اضماماتُ الكاذي أسنَّةً من أكمامها. وكان من أوفق الشعراء لرسم المشهد وتسجيل جزئياته هي الشاعرة المجيدة بنت إمام وزوجة إمام الشريفة زينب الشهارية المتوفاة سنة ١١١٤ هـ:

رأيتُ الروض والأزهار فيه
تفتِّقُه السحاب بكلّ دُجْنَه

سـوى الـكـاذي فـلا يـرضـيـه إلا
ومـيـض الـبـرق فـي داجـي الـدُجـنَّـه
إذا مـا سـلَّ فـي الآفـاق سـيـفـاً
بـدتْ فـي الحـال لـلـكـاذي أسِـنَّـهْ

وكذلك شاعرية باشراحيلنا المبدع فإنَّ حباً عنيفاً سجله ديوان البكر «معذبتي» هو الذي شقَّ مجراه وأذكى سناه.

التقاطة الفلاش

واسترسالاً مع سجيتي حين يزورني عمل إبداعيٌّ ذو شأن فأنزع عن نفسي ما استطعت من تصورات للآخرين عنه. وأبادهه باللقاء مبادهة المشوق المحتفي ويلتقط الفلاش في تلقائية تلك الجولة هنا وهناك موغلاً مع النصّ ومادياً له إلى منتهاه حيث تكون اللقطات الفلاشية قد تلاحقت وتألّقت لترسم في واعيتي ومجلى باصرتي عالماً شعرياً نضجتْ خارطته الحاضنة جزئياتٍ تهمُّ المبدع والمتلقي من مثل كيفية توفيقاته في اختيار الوزن والمفردة والجملة والصورة والشطرة والبيت ومن مثل طريقته في ترتيب ولائده الشعرية في الديوان الواحد حسب مرعياته ومحاذيره ودوافعه وكوابحه. خارجاً بعد ذلك إلى وقفة متلبّثةٍ نوعاً ما أمام صورته الشعرية وقد وقفتُ بها ومعها في ديوانيه الثامن والتاسع، وأخيراً نظرة بانورامية على مجمل العطاء من ثنيات الوداع.

(١) بسرور بالغ واحتفاء تلقيت رسالة رقيقة من الأخ الشاعر الدكتور عبد الله باشراحيل مصحوبة بتسعة دواوين غاية في أناقة نوعية الأوراق والتجليد والغلاف.

كلها من مطبوعات جدة سنة ٢٠٠٢م وصادف ذلك هوىً في النفس فأقبلت عليها وكان أول ديوان يقع في يد قارئي هو ديوان بعنوان (معذّبتي). وقصيدته الأولى مهداة إلى الملك خالد. والمعلوم أنّه رحمه الله لحق بربه سنة ١٩٨٢م فعلى هذا يكون الشاعر ونحن الآن سنة ٢٠٠٣م. قد أمضى أكثر من ربع قرن في صحبة الحرف الشعري وفي أثناء التطواف في الديوان جاءت قصيدته (عزاء الأحبة) توديعاً للملك الشهيد فيصل بن عبد العزيز وقد كان ذلك سنة ١٩٧٨م.

قصيدته (النسر) نقله نوعية في الديوان وبالمناسبة فهي أخرى قصائد الديوان.

(٢) ويتواصل التطواف في أعماله الشعرية فندخل ديوانه الثاني بعنوان (الهوى قدري) وفيها تأريخ قصائد «للحب والحياة» سنة ١٩٨٠م/ سنة ١٣٩٠هـ وهو في غير

مجاملة يكرر العزف على وتره الوحيد أشجانٌ وأحزان على الهاجر الغدار الذي يقول عنه:

أنــتِ جــدَّدتِ الــهــوى عــابــثــةً
وتحــولــت إلى أحــضــان غــيــري

ويتنوع في محاكاة شعراء قدامى ومحدثين وزناً ومعنىً ومبنىً. كابن زيدون والملاح التائه وابراهيم ناجي وبدوي الجبل وليس في هذا بدع فذلك شأن البدايات.

وكما استوقفني بقصيدته (النسر) في ديوانه الأول يستوقفني في ديوانه الثاني بقصيدته عن «البلبل». وهي أيضاً نقله نوعية في أسلوب الشاعر وموضوعه وإن كانت أحزان الحبيب هي النول الذي نسجَ بنيانها وزنبق أفنانها... رثاؤه لأحمد قنديل وهو الذي وصفه بالشاعر المبدع اعتصر أنفاسه وأدهق كأسه بخمر معتقة وما لنا لا نستمرىء الرتابة البروتوكولية ونحن نقف ساعاتٍ ثمينة من حياتنا لقراءة شعر شاب حجازي يحمل تجربة جيل في بلدٍ رائد (مكة) وفي ظرف هائج معتم يستدعي الإضاءة في كل خطوة. لِمَ لا نكون صادقين مع أنفسنا ومع مصيرنا، وطالما أضعنا الصدق فأضعنا الخير كله. إنَّني

أملي هذا بعد اختتامي ديوانه الثاني ذا الثلاثين قصيد بعد أن كان الأول جاء باثنتين وعشرين قصيدة. وكانت ولادة هذا وذاك وأحداث عظام تتلاطم بالمكان والزمان والإنسان. فأين أثرها فيه؟

الحق أنَّ مردَّ هذا السكوت ولا أقول الإهمال يتجلَّى في:

أولاً: نشأة شاب حجازي ثري يعيش ويرى الدنيا كلها حوله مخملاً فليس له من هموم غير ثريًا ابن أبي ربيعة.

وثانياً: انغماس في الإضراب الدائم الذي فرضته المملكة على نفسها وعلى أبنائها. ابتعاداً عن السياسة. وما السياسة؟ إنها الاعتناء والمعاناة بالشأن الذي يعنيني ويعنيك ويعني الآخرين فإنَّ وقوع الأفغان في أشداق الدب السوفييتي وقيام ثورة الفقهاء في إيران تطويحاً بعرش الطاووس واقتحام جهيمان وأتباعه عرصات وأروقة المسجد الحرام. ثم غزو المجنزرات الإسرائيلية لبيروت. كل هذا وأمثاله كان رغيف الصباح والمساء لكل بلاد العروبة

والإسلام فأين أين ذلك في هذين الديوانين الصامتين المُصمتين؟

نقول هذا ـ علم الله ـ لا لوماً للشاعر فهو ابن بيئته وكرَّم الله وجهه أنَّه العفيف التقيّ النقي رغم الشباب والجدة وإنّما نقوله صرخة في قلب كل شاب يحمل نفير النذارة والبشارة لأمته إذ يضطلع بمشنقة الشعر ووغى الإبداع.

(٣) الديوان الثالث: (هو النبع الظامي) طبعته الأولى سنة ١٤٠٦هـ/سنة ١٩٨٦م وهذه الطبعة التي بيدنا هي الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٢م وهو مكتظّ بالشعر المناسباتي من دينيّ إلى محليّ إلى قومي. فهل هذا الامتلاء هو الذي عنيناه في تعليقتنا على ديوانه الثاني؟ كلا فالفارق كبير جد كبير بين شعر تستدعيه لتُحيي به مناسبة أو ترضي أصدقاء وبين شعر دفّاق التيار موّار المشاعر والأحاسيس يغلبك على نفسك حتى تستكمل ولادته وتحسن استقباله. وإلى ذلك أشير في مقطوعة شعرية لي بهذا الصدد:

سـيـدي والـشـعـر بـرقٌ يهـزج
والحـنـايـا راعـدٌ يخـتـلـج

أنـا فـي راحـتـه بـرديَّـةٌ
مـنـه فـيـه وبـه تـنـتـسـج

لـلـخـلايـا فـي الـطـوايـا شـدوهـا
وخـدهـا مـنـتـجـه والمخـرج

ليس لي إنْ وفَّـق الـلـه سـوى
نـجـعـة يـشـمـل مـنـهـا الـهـودج

والنجعة المقصودة في هذا البيت الرابع هي الحصيلة الثقافية المعزّزة للموهبة. ولقد شعرت بتطور ملحوظ لشاعرنا وأنا أقف على قصيدته الغزلية بعنوان (آه) في ديوانه الثالث هذا. وكيف واتته تحليقةٌ راقية لغةً وشعوراً وتصويراً:

وجـئـتِ كـالـنـسـمـة الحـيـرى تـداعـبـنـي
بـفـارع مـن رشـيـق الـقـد تـيَّاه

وكـيـف أودى بـقـلـبـي لحـظ أعـيـنهـا
كـأنـه خـنـجـرٌ فـي جـسـميَ الـواهـي

يـا وقـدة الـضـوء فـي أحـداق نـاظـره
آهٍ مـن الـشـمـس فـي أبـصـارنـا آهِ

وفي تاليتها:

صـــوَّرت لي فـــجـــر الحـــيـــاة
خمـــائـــلاً تـــســـعـــى بـــبـــابي
والـــروض والـــزهـــر الـــنـــضـــير
وعـــاشـــقـــان عـــلى الـــروابي

ومن هجائه المُربي:

وأنـــت الـــغـــرُّ حـــين تـــروم شـــراً
وأنـــت الـــضـــحـــل حـــين تـــصـــول كـــبـــرا
ومـــن عـــجـــب الـــزمـــان نـــرى غـــرابـــاً
يـــسـمِّـــي نـــفـــســـه فـــي الـــطـــيـــر نـــســـرا

وقصيدته (تغريدة الحيارى) فيها الكثير من الرائق الفائق. ومن عيون قصائد الديوان قصيدة (لمن) فإنها إلى ما توفّر لها من فنّية تعرض أخلاق الشاعر المنيفة وشمائله الشريفة. ومثلها قصيدته (الطيف المحبَّب) ولأول مرة نسمع الشاعر في هذا الديوان يتبرّم من تبعات العشائرية وأخطاء القبيلة ص ٢٦٢:

يـــا صـــحـــبُ إني هـــاربٌ
مـــن نـــقـــمـــة الـــعـــشـــائـــر

وص ٢٧٦:

فـــودع ســـرّهـــا بـــين الحـــنـــايـــا
وتُـغـرقـنـا بـبـلـواهـا الـقـبـيـلـه

فهل يشير هذا إلى معاناة متواصلة من ارتباطاته القبلية وأحسبها خيطاً من خيوط الأحقاف لا يزال يشدّ رقبته. وفي قصيدته (كيف لا أتألّم) نلتقيه وقد أترعت المرارة كأسه ولم يعدْ في وجدانه إلا أن يحلم وإلا أن يتطلع إلى حُسن المآب زاهداً عن هذه الغرَّارة المكّارة وقد صارت اليوم كما لخَّصها المعرّي أمس:

كـلام أكـثـر مـن تـلـقـى ومـنـظـره
مّمـا يـشـقُّ عـلى الأسـمـاع والـبـصـر

أمَّا هو فيقول:

أيـن ابـتـسـامـاتُ الـربـيع وسـحـرهـا
تـفـتـرُّ عـن شـفـةٍ تُـضـيـىء وتحـلـمُ

يـا هـذه الـدنـيا مـلـلـتـك سـاخـراً
ومـلـلـتُ أيـامـاً تـذلُّ وتـسـقـم

حاصل ما يعرضه لنا الديوان الثالث من أحواله النفسية ومراراته العميقة التي يعانيها هو أنَّه بعد أن كان

في ديوانيه السابقين مغموساً في أحبولة الماكرة الغادرة عاد هنا في هذا الديوان الثالث يتضنّى كآبةً وحزناً من غدر الصِّحاب وتقلّبات الأتراب وهو المطبوع شهامة ونبلاً وتعاملاً بالحسنى مع كل الناس.

يقول في قصيدته (هلا تبصرت) ص ٢٨٤:

إن كـنـتُ أرفـل فـي نـعـمـاء حـافـلـةٍ
فـلـسـتَ تـدري بـالآلامِ أُعـانـيـهـا
حـمـلـت فـي مـهـجـتـي الآلام ثـائـرةً
وسـرت بـين رفـاق الـعـمـر مـشـدوهـا
إنِّي رجـعـت إلى قـلـبـي أسـائـلـه
عـن الـفـضـائـل فـي أزهـى مـعـانـيـهـا
أجـابـنـي مجـهـداً والـعـبءُ يـثـقـلـه
هـوّن عـلـيك فـهـذا بـعـض بـاقـيـهـا
يـا صـاحـبـي وركـاب الـبـين سـائـرةٌ
سـيـكـتـب الـدهـر أبـياتي ويـرويهـا

وينفتح البركان النائم أو المتناوم في الأعماق علاقم مريرة وحناظل لا تنتهي يبدؤها بشأنه الخاص ثم ينطلق بها ومعها في الشأن العام. وما أوجعه وما أقساه ـ

البراكين الثائرة ص ٢٨٧ :

كلّ البراكين تغلي حين تنفجر
والبحرُ يزبدُ والأنواءُ تعتصر

ليلُ الدياجي مُريبٌ والسفينُ لظى
يجري بها الموجُ هدَّاراً ويعتكر

والليلُ إن سادَ في إظلام عتمته
إشراقة الصبح تمحوه وتنتشر

غامت جوانحُ أترابي وما صنعوا
غير التبلّد والأحقاد تستعرُ

من حظِّهم أنَّ لي قلباً يصونُهُمُ
عن الدواهي فما صانوه بل غدروا

أزحت عنهم بقايا الوحل فامتقعوا
وقلتُ مهلاً فما لانوا ولا صبروا

ففي جراحي نزيف كم يؤرقني
وقد تحمَّلت ما لا يحمل البشر

طافت بنا نشوة الأنساب ينكرها
قحطان دعوى ولا يرضى بها مُضر

حتَّام نفخر في ما ضاع من زمنٍ
وقد تولت بنا أيَّامنا الغرر

بـأسـم الـعـروبـة شـيَّـدنـا محـافـلـنـا
وفـي الـزوايـا غـمـوض الـرأي يخـتـمـر
عـلى الـسـراب خـطـونـا نـحـو غـايـتـنـا
ولـلأراجـيـف نـسـعـى وهـي تـأتـمـر
واخـزيـنـا اليوم مـن عـار يـلاحـقـنـا
وكـيـف عـن عـجـزنـا المشـهـود نـعـتـذر
بـأسـم الحـضـارات قـادونـا إلى حُـفـر
حـتـى تـرامـت بـنـا الأدغـال والحـفـر
الـعـبـقـريـات مـاتـت قـبـل صـحـوتـهـا
والمبـدعـون اعـتـرى إبـداعَـهـم خـور
إنَّ الـنـفـوس إذا اشـتـدَّت عـزائـمـهـا
لـسـوف تـبـلـغ مـا تـصـبـو وتـنـتـصـر

وأعترف بحرصي على التخفف من إكثار إيرادي نصوصه الشعرية. ولكنني أجدني مرغماً على إيراد قبسات كهذه من قصيدته (النبع الظامي) التي جعلها عنوان ديوانه هذا الذي نحن بصدده. ومنها وعليها نطوف على جناح الشعر في أبهاء وجدانه وخفايا مشاعره. وأراه ـ وكنت أحسبه بديناً معافى ـ مثقلاً بالآلام والأسقام وطعنات الغدر.

مـــا رقَّ لي خـــافـــقٌ يـــومـــاً ولا عـــرفـــت
قـدري الـضـمـائـر يـا لـلـواجـف الـدامـي

ومـــا تخـــيَّـــلـــت أنِّي مـــانـــح ثـــمـــري
لـــســـافِـــحٍ يـــتـــشـــهَّـــى ذلَّ إرغـــامـــي

حـتـى بـدا فـي ضـمـور الجـسـم عـلَّـتـه
واسـتـفـحـل الـداء واسـتـعـذبـت أسـقـامـي

يـا نـاثـراً فـوق خـدّ الـصـفـح مـوجـدتي
وقـــابـــعـــاً بـــين أحـــلامـــي وآلامـــي

أرنـــو إلى ســـارحـــات الـــطـــيـــر صـــادحـــةً
وألـــثـــمُ الـــزهـــر تـــوَّاقـــاً لأنـــســـامـــي

تـشـتـاقـنـي غـيـمـةٌ بـيـضـاءُ صـافـيـةٌ
نـــديّـــةٌ مـــثـــل تحـــنـــاني وإلـــهـــامـــي

تـلـك الحـيـاة إذا مـا الـطُّـهـر عـانـقـهـا
يـفـتـرُّ مـبـسـمـهـا مـن لحـن أنـغـامـي

تـطـوف فـوق رمـال الـبـيـد سـاجـعـة
تُـعـيـد مـا فـات مـن دهـري وأعـوامـي

قـد عـشـت أسـقـيـه مـن صـفـو الـزمـان نـدى
وكـــنـــت أنهـــل مـــن آهـــات إيـــلامـــي

كـنـا عـلى رفـرف الآمـال يـغـمـرنـا
ودٌّ تـعـطَّـر مـن أفـواف أكـمـام
يـا سـارقـاً مـن جـفـون الـعـين غـفـوتهـا
لـقـد رمـيـت ومـا أقـسـاك مـن رام
مـلـكـتـنـي وعـيـون الـغـدر تـنـظـرني
أطـفـأت مـنـي سـنـا نـوري وأقـلامـي

وأمُّ القرى ومحضن جبال النور أحب أرض الله إلى قلبه - لا يحبُّها إلا مؤمن. هي في قلب الشاعر بمنزله الأم وأعزّ الأحباب. ذلك هو طابع الفطرة في القلب السليم ولها عليه بعد ذلك - وهو في المقدمة من رُعاتها - (سهرُ الذائد وصدقُ الرائد) ص ٣٠٦:

مـنـابـر الـنُّـبـل مـنـك الـطُّـهـر يـنـهـمـلُ
وأنـت لـلـخـلـق كـل الخـلـق مـقـتـبـل
لا غـيَّـر الـلـه مـسـرى الـنـور يـسـطـعُ فـي
مـديـنـةٍ مـن ضـيـاء الحـق تـكـتـحـلُ
مـا ضـرَّ حـبـك إنْ عـقَّـتـه طـائـفـةٌ
لـلـشـرّ لا لـلـنُّـهـى والـنـبـل تمـتـثـلُ
عـصـابـةٌ فـي يـد الـشـيـطـانِ إمـرَتُهـا
تـبـقـى نـهـايـتـهـا حـيـث انـتـهـى هُـبـلُ

يطغى الغثاءُ فلا يغرُرك منظره
إنَّ الفقاقيع تطفو ثمَّ ترتحل

سيسخر الناس يوماً من صنائعكم
ويذكُر الدهر مَنْ منَّا هو البطل

ونسمعه يُناغم صغيرته (عالية) وهذه قسماتها الشعرية في ديوانه ووجدانه ص ٣٤٠:

يا زهرةً بين الخمائلْ
يا كوكباً فوق القوافلْ

فيها براءات المُنى
فيها ترانيمُ البلابل

فيها ابتسامُ النور يسري
حينما تشدو العنادل

فيها الرياحينُ المضيئةُ
في الحقول وفي السواحل

(٤) ديوانه الرابع عنوانه (الخوف) صدرت طبعته الأولى سنة ١٤٠٨هـ/سنة ١٩٨٨م وهذه طبعته الثانية سنة ٢٠٠٢م افتتحه بقصيدة عنوانها (ما هانَ في دنياك دين) مخاطباً بها مليك العربية السعودية ومُعلناً المطالبة بإعادة

النظر في الأوضاع من أجل خطوة إلى الأمام.

وفي قصيدته صورٌ قديمة للعالم العربي يستعرض الأوضاع المتردّية بأمته ولأول مرة نسمعه يتكلم عن اليمن بأعلامها التاريخية كسيف بن ذي يزن. وأعلامها المكانية كمدينة (عدن) ويشير إلى مذبحة أشعل نارها الأعداء ولعله يقصد بذلك ما جرى بين الرفاق الاشتراكيين في مبنى اللجنة المركزية بعدن سنة ١٩٨٩م: (ص ٣٨٥):

وهـــذا ســـيـــف ذي يـــزنِ
تجـــرّد مـــرةً أخـــرى
وذاك أوارُ مـــذبـــحـــةٍ
تُحـــاكُ مـــن الـــعـــدى غـــدرا
وقـــد تـــشـــقـــى بهـــا عـــدنٌ
ســـنـــيناً أو فـــقُـــلْ عُـــمـــرا

وقصيدته (سحابة) مرارة مثقلةٌ بالحزن وجهامة الواقع الذي لا يسمح بغير الصمت. وما أثقل الصمت على الربابة: ص ٣٨٨:

وصـمـتُ فـانـتـبـه الأسـى وتحـجّـرت
خـفـقـاتِ الـثـكـلى يـؤرقـهـا الـذُهـول

الـصـمـتُ أجـدر مـن حـديـث مـزيَّـف
يُخـفـي لـواعـجـه ويُـغـريـه الـفـضـول
سـنـعـيـش دهـراً والـلـيالي رحـلـةٌ
الـزادُ آهـاتٌ وأنَّـاتٌ تـطـولُ
والـصـمـتُ فـي قـلـبـي يُـعـربـد طـاغـيـاً
مـتـمـرداً مـتـعـاقـبـاً مـثـل الـفـصـول

ويبدو هذا الديوان مملوءاً على أشدّه بالجمر المتشظي من مثل قصيدته (أُفق) ولأول مرة أيضاً نلتقي في ديوانه الرابع رمزاً مشرقاً من رموز الإبداع اليمني هو العلامة الشاعر الناثر أحمد محمد الشامي.

وفي الهامش توضيح أنَّها ردّ على تقريضه لديوان الشاعر (النبع الظامي) ويغلو به التشاؤم فيرى المسار الإنساني تكراراً مستديماً لمساءة الشقيقين الأولين ابني آدم. ص ٣٩٤:

لـن يجـود الـغـيـم بـالمُزنِ
ولـن تُجـدي الـوسـائـل
واجـدبي يـا نـبـتـة الـصـبَّـار
جـفّـي يـا خمـائـل

واضـــــحـــــكـــــي يـــــا أرض
كـــان الـــبـــدء مـــقـــتـــولاً وقـــاتـــل

وعلى جمر السنوات العجاف في دنيا العرب وعلى جمر ضعاف النفوس اللابسي ألوان الحرباء يقول في قصيدته (الضمير المخنوق):

وخـــنـــقـــت أنـــفـــاس الـــضـــمـــيـــر
ســـحـــقـــتُ أشـــرعـــة انـــتـــظـــاري
قـــد كـــنـــتَ فـــي قـــلـــبـــي مـــلاكـــاً
كـــيـــف صـــرتَ مـــن الـــضـــواري

وقصيدته (الخوف) التي جعل عنوانها عنوان ديوانه الرابع زفيرٌ ملتهب. وأكثر مثيرات المساءة هنا أنه سخط عام على ما يجري ولكنه لا يملك أن يبين:

جـرادٌ عـلى الـسـفـح يـطـوي الـرَّغـد
إذن قـــل أعـــوذ بـــربِّ الـــبـــلـــد
عـلى الحـرث والـبـاسـقـات الـطـوال
ونـــضَّـــاحـــة الماء ليســـت تُـــردّ
تجـــورُ الخـــطـــايـــا عـــلى أمـــرهـــا
فـــصـــارت مـــداداً لـــذاك الـــعـــدد

ســتــبــزغ يــومــاً عــلى فــرقــدٍ

وتــنــثــر فــي الــشــمــس كــلَّ الــزبــد

ثم نلتقيه في قصيدته (حجر يهمّ بالتقدم ويخشى المحاذير) ويعرف من نفسه ما قاله الطغرائي: (حبّ السلامة يثني عزم صاحبه)... فيؤثر الموادعة والاستسلام للواقع. وقصيدته هذه ذكَّرتني بقصيدةٍ لشاعر يمني معاصر - وكلا الشاعرين باشراحيل وعبد الله البردوني - ذو أرومة يمنية ومحمّد مذحجي. غير أنَّ الفارق بين القصيدتين رغم اتحادهما في البحر العروضي وتقاربهما في عدد أبيات القصيدتين يكشفان عن فوارق التكوين الجسدي وطبيعة البيئة ونوعية الثقافة فإذا هما على طرفي نقيض. وتوضيحاً لذلك أورد القصيدتين بنصّيهما كاملتين. يقول باشراحيل المكّاوي البلد ص ٤٠٨:

سمِّــنــي مــا شــئــت حــتــى لــو حــجــرْ

لــفَّــنــي الــصــمــتُ وأعــيــانــي الــضَّــجــر

هــدأ الإبــحــار فــي وقــتــي وقــد

ضــاع مجــدافــي وضــيَّــعــت الأثــر

ليلـــتـــي الأنـــواء لا أنـــكـــرهـــا
عـــاصـــفـــاتٌ وعـــلى وجـــهـــي كـــدر
أســـأل الـــليل الـــذي ضـــاحـــكـــنـــي
أتـــرى يـــا ليلُ يـــأتـــيـــنـــي الـــقـــمـــر
كـــم تـــفـــيَّـــأتُ بـــظـــلٍّ عـــابـــرٍ
ورأيـــتُ الـــزَّهـــر حـــولي والمطـــر
وانـــتـــصـــارات المنـــى قـــائـــلـــةٌ
نـــعـــمَ مـــا قـــدَّمـــت رمـــزاً لـــلـــبـــشـــر
لـــو تـــراني ســـاعـــداً مـــقـــتـــدراً
يـــصـــنـــعُ الـــتـــاريـــخَ جـــهـــداً وفـــكـــر
غـــيـــر أني واجـــفٌ مـــنـــهـــزمٌ
يـــتـــمـــنَّـــى. يـــتـــلـــهّـــى. يحـــتـــضـــر
يـــأمـــن الـــنـــوم عـــلى عـــلاَّتـــه
عـــذره أنَّ المشـــيـــئـــات قـــدر
مـــا احـــتـــيـــالي والـــرؤى جـــاثـــيـــةٌ
بـــين تـــكـــذيـــبٍ ووهـــم وســـهـــر
والـــثـــواني فـــي خـــطـــا الـــعـــمـــر لـــظـــى
مـــا تـــنـــاهـــت عـــنـــد أســـوار الحَـــذر

رجـــعـــةٌ أم رجـــفـــةٌ قـــاهـــرةٌ
وشـــعـــاعٌ فـــي ظـــلامٍ مـــســـتـــتـــر

مَـن يُـريـنـي فـي الـصـحـارى نـظـرةً
حـفَّـهـا الـشـوقُ إلى وجـه الـظـفـر

فـــإذا رانَ عـــلى وجـــهـــي أســـىً
سـمِّـنـي مـا شـئـت حـتـى لـو حـجـر

ويقول البردوني الذماري الصُقع ساخراً من زبانية العذاب في الأجهزة الحاكمة:

غـيـر رأسـي أعـطـنـي رأس جمـل
غـيـر قـلـبـي أعـطِـنـي قـلـب حمـل

رُدَّني مـا شـئـت ثـوراً، نـعـجـةً
كـي اسـمِّـيـك يـمـانـياً بـطـل

كـي أُسـمِّـيـك شـريـفـاً أو أرى
فـيـك مـشـروع شـريـف محـتـمـل

سـقـط المكـيـاج لا جـدوى بـأنْ
تـسـتـعـيـر الآن وجـهـاً مـفـتـعـل

كـنـت حـسـب الـطـقـس تـبـدو ثـائـراً
صـرْت شـيـئـاً مـا اسـمـه؟ يـا لـلـخـجـل

ينقش البوليس ما حققته
من فتوح بالمواسي في المقل
بالهراوى بالسكاكين بما
يجهل الشيطان من أخزى الحيل
تقتل المقتول كي تملكه
ولكي ترتاح تشوي المعتقل
هل أُسميك بهذا ناجحاً؟
إن يكنْ هذا نجاحاً ما الفشل؟
إنَّما أرجوك غلّطني ولو
مرَّةً كنْ آدمياً لا أقل
قلْ أنا الكذاب وامنحني على
حسّك الإنساني الشعبي مثل
فلقد جادلت نفسي باحثاً
عن مزاياك فأعياني الجدل
أنت لا تقبلُ جهلي إنَّما
ليس عندي للخيانات غزل
أي شيء أنت يا جسر العدى
يا عميلاً ليس يدري ما العمل

رُدَّني غـيـري لـكـي تـبـصـرني
لـلـذبـاب الآدمـي نهـر عـسـل

يبدو ونحن ننتقل مع شاعرنا إلى قصيدة تالية في ديوانه الرابع بعنوان (ربيع اليأس) إنَّه خلق لغايتين اثنتين يؤدّيهما في هذه الحياة نحو هذا الكون وهذا الإنسان:

حبّ سخي وإحسان دافق. فإذا به ـ وكان المتوقع لحسن ما قدم أن يسعد بهم ويسعدوا به ولكنَّه: (قتل الإنسان ما أكفره).

يخونه الحبيب ويغدر به الصديق وما بيده من طائل ردّاً على هذا وذاك إلا أن يردد مثل هذا النغم الحزين والشكاوى المُرَّة. ومنه نعرف المدى الذي تطورت لغتهُ فيه وألوانه وصوره. (ربيع اليأس) ص ٤١٣:

عـلى مـرفـأ الإيـثـار يـا سـاقـي الحـمـى
أجـدُّ إليك الـسـيـر مـن حـرقـة الـظَّـمـا
أجـدُّ إلى نهـرٍ مـن الـطُّـهـر والـشَّـذى
يُجـفِّـف دمـعَ الـوقـت لمَّا غـدا دمـا
يُجـفِّـف تـكـذيـبـاً ويُخـفـي حـيـاءَه
يُـعـانـق حـضـن الـزيـف مـا كـان مـبـهـمـا

يُعانق خصر المستطيل بغدره
ويمحو جديد الجرح جرحاً إذا طما
تمرُّ بك الريحُ الغضوبُ أما ترى
عواصف إعصار وربعاً مهدَّما
على الهون ما يُجدي وفي النَّفس زفرةٌ
وكيف تُعيد الآه ما قد تحطَّما
وراقصةٍ للنور والنارُ دونها
هل اقتبستْ بدراً وشمساً وأنجما
تموتُ فداء الهون لا عن كرامةٍ
سوى نزعة الإنسان فيما تأثَّما
وتضحك روح للرَّدى وهو مقبل
ويبكي عليها البين من هول ما رمى
وليل يطيل الليل حُبَّ ارتياده
وكم تبهمُ الأشياء في عتمة السَّما
غدا كلُّ خفقٍ في القلوب محيراً
وصار بنو الإنسان من جملة الدُّمى
عذارى المنى موتي وأنتِ قريرةٌ
فسيف الذي يقوى سيصبح مغنما

متى كان للساري منالٌ ينالُه
وأحداق هذا العصر مجبولة العمى

متى تنزع الأستار في صحوة الحجى
ويطلع هذا الجدب للحق موسما؟

والقصيدة بمجملها وزناً وقافية تذكّرك بالبيت الحماسي السائر المعاكس لمضمونها:

تأخّرت استبقي الحياة فلم أجد
لنفسي حياةً مثل أنْ أتقدَّما

وإذا كان ظلم ذوي القربى أشدّ مضاضةً على النفس من وقع الحسام المهنَّد، و:

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته
على طرف الهجران لو كان يعقل

فإنَّ شاعرنا من ذات الإجحاف ومن ذات الوجع يئنّ (قصيدته الستار). ونسجل هنا أنَّ أنفاسه الشعرية العاتبة في هذه واللاتي قبلها يقف عند حدّ الأربعة عشر بيتاً لا يتجاوزها. فهل معنى هذا أنَّ الأربعة عشر كافية لاستنزاف دمعه وهدهدة أنينه. والحقّ أنَّني وقفت أمام (الستار) فلم أملك أن أتجاوزها.

فتذوَّق لغته السرية الندية فيها ودع له مواجعه وحده يبكيها. ولسان حالنا معه ومعها قول الخنساء:

ولــولا كــثــرة الــبــاكــين حــولي
عــلى مــوتــاهــمُ لــقــتــلــتُ نــفــسـي

فهذه هي خبز المثقف العربي وشرابه اليومي إنْ كان ذا ضمير وموقف، ص ٤٤٤:

أخــفــوا سَــنــاك وأســدلــوا عــنــك الــســتــارْ
وغــضــيــض طــرفــك مــا اســتــراب ولا اســتــشــار
وهــبــطــت مــن لحــن الخــلــود إلى المدى
تــمــضــي إلى الأحــيــاء مــن نــورٍ لــنــار
مــتــخــفــيــاً حــتــى إذا ســألــوا الــصَّــدى
رد الــصــدى هــو فــي الــذرى خــلــف المدار
يــتــمــرَّد الــقــمــر المُضــيء إذا اخــتــفــى
ويــعــود يــسـفــر وجــهــه ضــوء انــبــهــار
طــفــل الــهــلال كــبــرت يــا طــفــلَ الــسـنــا
وأضــأت دون تــلــعــثــم تــلــك الــقــفــار
مــن يــعــرف الــصــمــت المريــع إذا اعــتــراه
فــلا يــفــرّق بــين شــوك أو نــضــار

مـن يـعـرف الـصـوت الملـعـثـم بـالأنـين
ومـن تـقـهـقـر خـلـف ذرّات الـغـبـار

هـو ذلـك الـفـكـر المخـضَّـب بـالـغـبـاء
وبـالـتـمـلـق. بـالـتـشـدّق. بـالإسـار

يـا عـصـبـةً دحـرتْ ثـواني الـوقـت يـا
عـصـفـاً مـن الأريـاح هـدَّمـت المنـار

هـل سـوف نـحـكـي قـصـة الـوجـه الـذي
سـخـر الـزمـان بـه وقـوَّضـه احـتـقـار

مـلأوا الـسـلال أزاهـراً ممـهـورةً
بـالـزيـف سـمّـوهـا زهـور الجـلَّـنـار

بـعـثـوا إليك وأرسـلـوا ألـف اعـتـذار
وطـوى الـظـلام الـصـبـح قـبـل الانـتـشـارْ

أتجـيء بـعـد اليوم يـا أمـل الـرؤى
أتجـيء؟ قـال إذا أتـى ضـوء الـنـهـار

ومرحى يا شاعرنا عبد الله وأنت تهدينا هذا النغم الحلو المبتكر ـ النبأ ـ ص ٤٥١:

أبـيـعُـك نـوَّار هـذي الـرُّبـى
وأشـري عـلى الـضـيـم ريـح الـصَّـبـا

تُـفـدِّيـك.. عـينان حـوريـتـان
وروضـاً مـن الـزهـر مـا أطـيـبـا
لـك الـروح والـشـفـتـان الـعـذاب
لـك المقـلـتـان... ومـا أعـذبـا
مـن الـعـشـق مُـدَّت لـنـا راحـتـان
فـكـنـت المقـرَّب والمجـتـبـى
مـن الـفـرح مـن طـائـفـات الخـيـال
أضـمُّـك أمَّـاً وأحـنـو أبـا
حـبـيـبـي هـنـا نـسـتـعـيـد الـصِّـبـا
ونـفـتـرش الـروض والملـعـبـا
نـمـيـس عـلى زقـزقـات الـطـيـور
وشـاردةٍ مـن حـسـان الـظِّـبـا
لـقـد نـبَّـأتـنـي بـك الأمـنـيـات
وهـا نـحـن يـصـدق فـينا الـنَّـبـا

(٥) ديوانه الخامس - وإني لتدهشني هذه الوفرة فدواوينه التي بين يدي عشرة. وعمره الشعري الذي استنتجته من ديوانه الأول (مُعذبتي) ربع قرن.

فعلى هذا فإنَّ صاحبنا يمدُّ الإبداع الشعري العربي

في كل عامين ونصف بديوانٍ جديد.

هذا الديوان الخامس هو بعنوان (قناديل الريح).

(أ) **منابر الفجر**: من إصداراته سنة ٢٠٠٢م. وإني لأتساءل مع نفسي أي موردٍ ثرٍّ ثري هذا الذي يمتح منه شاعرنا كل هذا العطاء؟ ويأتيني الجواب من مواضيع قصائده الموقوفة في هذا الديوان على مناسبات وطنية وتكرار لآلامه القومية. إنَّ شاعرنا علمٌ من أعلام الواقع الحجازي. وله مكانته في كل حواضر المملكة ولدى كبار أمراء البيت السعودي الكريم. وعلى هذا فهو مطالب بتغطية المناسبات رنيناً موزوناً وقصائد عصماء طنانة ترضي الواقع المعني بها ولدى الشاعر رحابة في الأمل وتفاؤل كلما غاض عاود سيرته في الفيضان والجريان وحقاً ما قاله الأول (ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل).

وإنَّ من سمات شاعرنا باشراحيل وشعره حتى ولو كان الموضوع ملتهباً كغزو صدام الكويت فإنَّ لغته المؤاسية وأسلوبه الذي يذكِّرك بالبيانات الديوانية غاية في اللطف والابتعاد عن المواجع. ولكي تلمس هذا بنفسك راجع

قصيدته (كويت لا تخفْ) والقصيدة التي تليها وهي بعنوان (رسالة إلى صدام حسين):

صـدَّام والـغـارُ بـعـض مـن شـمـائـلـنـا
عُـرس الخـليج خـبـا مـا عـاد يـأتـلـق
كـنّـا مـعـاً نـوقـظُ الـدنـيا ونـسـهـرهـا
واليوم فـي غـمـرة الأشـجـان نـفـتـرق
كـنَّـا مـعـاً يـا عـراق الحـب نـعـلـنـهـا
نـحـن الـفِـداء إذا رام الـعِـدى نـزق
كـنَّـا مـعـاً نـقـسـم الآلام نـقـهـرهـا
والآن أيـن الـذي كـنَّـا بـه نـثـق
نـارٌ تـصـبُّ عـلى وجـه الخـليج أسـىً
قـد كـان أولى بهـا الأعـداء تحـتـرق
أبـا عـديّ أليس الحـبُّ يجـمـعُـنـا
والـديـن أورثـنـا مـن عـطـره الخـلـق

وإذا عرفنا أنَّ الرجل رئيس أو عضو فاعل في أكثر من ثلاثة عشر موقعاً منها التجاري ومنها الاجتماعي ومنها الثقافي استبان لنا حجم حضوره الشعري الذي يستدعي منه شاء أو لم يشأ مشاركة بارزة. وفي المقدمة

من أجل هذا وعلى ضوئه فلا استغراب إذا طمى شعره المناسباتي وإنَّك لتُهنئه على مقدرته البارعة في الإتيان بكل هذا الكم الضخم الذي يرضي الخليل بأوزانه وسيبويه بقواعده ولا يخلُّ بمجاملة محسوبة. ثم يخرج من كل ذلك نظيف اليد من أي خدش هنا أو هناك.

وبطبيعة التزامه الإسلامي فهو يرى الحياة ويتعامل معها بمنظوره القرآني لا برياح الإغراء الشيطاني المتصاعد من الغرب بمزيدٍ من إغواء المرأة واتخاذها أحبولةً من أحابيله، عصر الفداء ص ٦٧:

لـــمِّـــي مـــن الأرض الـــرُّفـــاتْ
الـــورد فـــي الأوطـــان مـــاتْ
وذري بـــقـــايـــانـــا هـــنـــا
نـــبـــت ســـيـــورق فـــي الموات
طـــين جـــديـــد يـــبـــتـــنـــي
أســـمـــى عـــصـــور الـــســـيـــدات
مجـــدٌ يخـــلـــده الـــفـــدا
تحـــمـــيـــه مـــن جـــور الـــطـــغـــاة
والـــبـــاقـــيـــات الـــصـــالحـــات

فـــرعـــون أصـــدر أمـــره
أن يـقـتـلـوا كـلّ الـذكـور
أن يحـرقـوا كـتـب الـنـذور
واليمُّ يـا مـوسـى يـمـور
مـا بـين ربّـات الخـدور
قـصّـيـه يـا بـنـت الـدهـور
فـالـوعـد لـلـديـان نـور
يـا أمَّ مـوسـى لـن يـبـور
قـد عـاف كـلَّ المرضـعـات

ونراه في هذا النص يعمد إلى الرمز التاريخي أداءً لمضامينه الغاضبة. وفي قصيدته الانتفاضة، جديد قشب من المفردات والتراكيب تؤدي واجب جلالة الموضوع وقدسيته.

وفي قصيدته (موت العرب) يذهب إلى اعتماد التفعيلة التي تمنحه قدرة على الانديا‌ح مع تداعيات المضمون وهي تجربة جديرة بالتنويع والتشجيع ذلك أنَّها تفسح المجال أمام تدافع المعاني والصور استيعاباً للموضوع وتحقيقاً للاكتمال الفني في أدائه. وفي مناجاته صغيرته

«ريم» نلتقيه وقد خُلق من جديد في إفضائه بالخزين المكتوم من السآمة إلى حدّ الغثيان من كل هذا المناخ الزائف الفاقد حلاوة الصدق ومذاق العافية:

أريم الحبيبة

يا طفلة في زمان التعب

وجنة حبي القديم الجديد

وروعة كل المصاعب

يا زهرة في الغصون

تعالي أضمُّك

بين سعادة قلب لقلب

أحسُّ بأنك

معنى اللغات

ومعنى الحياة

ومعنى يروق

ومعنىً يصارع كل النفوس

ويعرف وجه الغضب

سئمت كتاباً

له ألف معنى

وداراً لها ألف باب

سئمت النعوت القديمة

حتى الجديدة

سئمت التسمّيَ

باسم العرب

وقصيدته (نبض حائر) أجدها أوفى نصّ في هذه الدواوين العشرة لعرض ذاتية الشاعر بادية وخافية خاصَّة وعامةً وهي بمجملها ستةٌ وعشرون بيتاً اجتزأنا منها ستة عشر:

قد أشتكي يوماً وقد أتعتَّب

سيَّان تغشاني الهموم وتذهب

سيقال إني في السعادة أرفل
ويشاع أني الأوحد المتكسِّب
وأذيق أحلامي سلافة خافق
عرف المرارة في الكؤوس ويشرب
في كل ناحية جموعي حضّرٌ
وبكل أرضٍ روضةٌ لا تجدب
عندي الربيع ووردة وعبيره
عندي من الأشياء ما لم يحسبوا
أشرعت باب المستحيل فرحلتي
قمر يرافقني وداري كوكب
ورياح مركبتي على متن الرؤى
لا تسألوا عني ولا تتعجّبوا
أنا ديمة الإلهام والفكر الذي
أيامه فتن تلوح وتغرب
أغرقت في سفن الجمال مشاعري
ورأيت أني للفتون محبب
إن الخرائد في غناء قصائدي
كشفت من الأسرار ما يتحجَّب

شـــرب الـــظـــمـــاء عـــلى صـــفـــاء مـــودتي
شـعـراً نـبـيـل الـقـصـد لا يـتـهـيَّـب

سـافـرت فـوق الـريـح أسـأمـنـي الـهـوى
ورجـعـت أشـدو لـلـحـيـاة وأرقـب

وأرقـتُ مـن دمـع الـسـنـين فـأنّـتـي
نـار تمـوج بـشـرقـنـا تـتـلـهّـب

(وطـنـي) جمـال الـقـادمـين إلى المنـى
مـاذا أقـول وكـيـف شـعـري يـعـرب؟

عـفـواً إذا فـاض الجـمـال عـلى المدى
وجـه الجـمـال تـعـشّـق وتـأدّب

فـإذا تـنـاكـرت الـوجـوه فـإنَّ لي
نـسـبـاً يـتـيـه بـه ويـزهـو يـعـرب

أمَّا الفيلم الأمريكي وهذا عنوان قصيدته عن أحداث اليوم الباقي آخر الدهر فإنَّ هذا النفس الشعري شدَّني إلى الشاعر حتى لكأننا بعض من بعض وصدق شوقي: (إنَّ المصائب يجمعن المصابين)

هو هنا يتحدث فيؤدي واجب الشعر ومن قبل واجب الشعر واجب الدين. ومن قبل واجب الدين

صوت الفطرة الصارخ في وجه الظلم بكل لسان وكل لون.

إنَّه يتحدث عن تأديب الفيل يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١م:

في لمحة عين يا ربي

أو ثانيتين

أتذكر ماذا لا أدري؟

حلماً في العين

مذهولٌ إنسان الدنيا

والمذعورون

تدعوك نفوس تكفيها أعداء الدين

وجموع الناس وآلامٌ قالت بيقين

آمين

بل كل الدنيا قالت آمين

دور شامخةٌ تتهاوى

والبنتاجون

ماذا حدَّثتك يا صاح

قل من يومين

أنبأتك ما مثل الأقوى

بين الأقوين

أنبأتك جباراً فرداً

لا جبارين

والمقبل طوفان يودي

بالملعونين

ليثوب الباغي عن صلفٍ

ويُسرّ غبين

يا يوماً مر لناظره

حقاً... لا مين

أقدار الخالق تشهدها

أحداق العين

إعصار يلتفّ على الرؤيا

لا تدري أين؟؟

ما أصعب جرحك أمريكا

في هذا الحين

ما أضعف حالك نريثك

حتى التأبين

ونزوِّر كل مشاعرنا خوفاً

فجميع ضحايانا دمهم بخسٌ

ودم الجبروت ثمين

لسنا الإرهاب كما قلت

ولا مرتهبين

واسقِ الظُلاَّم كما ظلموا

ماء غسلين

فعبادك يا ربي ضجوا

بالمكلومين

بهذا النص اتضحَ لي دهاء الشاعر وحكمته معاً حين حشد ما حشد أوائل الديوان وعلى هذه الطريقة وبنفس الأسلوب تراه في قصيدته «الخليج الأخضر» باسماً هزجاً ثم يخرج منها إلى قصيدته «البوارج والرحيل» وفعلاً فقد ارتحلوا من قلب العروبة الرياض مايو سنة ٢٠٠٢م ولكن إلى أين؟؟ إلى قاعدة العديد في قطر بعد أن خزموا عاصمة الرشيد (بغداد).

أرحلي يا بوارج الشرّ عنَّا
ملَّ دهرٌ وملَّ بحرٌ وجوُّ
قل لواشنطن البغيضة غيبي
عن ثرانا فأهلنا الأرض روّوا
ألفوا الثأر والرَّدى والدياجي
والعُلى عندهم فخار وزهو
فغداً يسكب الجحيم عليكم
ويعيث العذاب فيكم ويلهو

ولله أنت باشراحيل حين تقول في (الآمال الضائعة):

حتَّام يا فجر المنى لا تبزغُ
وجباهنا بين الثرى تتمرغ
وإلام تسكننا الرزايا غدرة
وينوء بالعلاّت قلب مفرغ
هبَّت نسائمنا معطرة الندى
ونسيسها الوسنان منها أبلغ

ويطيب لي بل قل يجب عليَّ وعلى هذا الديوان المبطَّن بالبراكين تسترها غلائلُ الياسمين أن يكون اختتام تطوافي معه بهذه الآهات الشعرية الخافضة الرافضة الماتعة الموجعة نوردها كاملةً حتى نُحسن التعرف على قسمات وتقاسيم هذا الشاعر الغريب الأريب مظفور النار بالورود ومديم العروج على سلالم الركوع والسجود للحق وحده سبحانه بعنوان (قبضة الريح):

قبضةُ الريح أو هو الأمل الواهي
ولقبضُ الثرى أجلُّ هدية
عفّرت مقلة الطفولة بالسهد
وأضحتْ مغالقاً وبليّة
خبِّريني متى تلوحُ الأماني
في خطانا من قبل بدء الرزيّه

وأضيئي على خيال الحيارى
فكلانا على الخيال مطيّه
قبضة الريح والزمان ذبيحٌ
في خطى القهر والدٌ وصبيَّه
والمسافات والضياءُ جريحٌ
والتياع على عيون الضحيّه
أيها الماخرُ العباب على الضيم
وسارٍ تمدّ قهرك غيَّه
ما حسبناك في دروب المخازي
قد أردناك نصرةً وحميَّه
واتقاداً على الضغينة والظلم
تبين المواجد المخفيَّه
فاقتصد أيها المسلط إنَّا
نبتغي العدل شرعةً أزلية
قبضة الريح والحقوق هباء
وامتصاص الأذى دماءً زكية
والأحاديث في شفاه الأسارى
والأكاذيب بكرة وعشية

مـــا لأســـلافـــنـــا الأمـــاجـــد ولّـــوا
وأُبـــيدوا فـــمـــا لـــهـــم مـــن بـــقـــيـــة

أيهـــا الـــصـــامـــت المحـــمـــلـــق تـــرنـــو
أنـــت تـــرنـــو إلى الـــنـــفـــوس الأبـــيـــة

حـيَّـرتـنـا الـهـمـوم كـيـف نـواري
ســـوأةً مـــن قـــرابـــة أخـــويَّـــه

قـبـضـة الـريـح وارتجـاف المخـازي
تـتـبـدَّى مـن الـسـمـاء شـظـيّـه

أتـراهـا بـدايـة الخـسـف تـرمـي
أنـفـسـاً بـالخـنـى تـظـل شـقـيّـه

حـكـمـة الـكـون أن نـرى الحـق طـهـراً
نـتـسـامـى لـغـايـة سـرمـديـة

كـيـف شـرع الـعـبـاد بـالحـق يـقـضـي
كـيـف صـرنـا لـشـرعـة هـمـجـيـة

ربّ قـد نـادت المشـارق غـضـبـى
ربّ واديـك مـنـبـع الـقـدسـيّـه

رب والـضـارعـون والـلـيل غـاشٍ
والـتـراتـيل مـن قـلـوب تـقـيّـه

ربّ والـــصـــوت فـــي المآذن داعٍ
مـالـك الملـك يـا نـصـيـر الـبـريـة
قـبـضـة الـريـح أو هـو الملأ الـسـاجـي
عـلـى الـسـمـع تـسـتـفـزُّ الـرعـيـة
كـفـكـفـتْ دمـعـهـا المفـضـض سـلـمـى
وانـحـنـت لـلـعـنـا تـردّ الـتـحـيـه
مـا لـهـا لم تـعـد مـضـاحـكـة الـبـدر
ومـا لـلأسـى يـنـيـب وصـيّـه
طـفـلـة الحـي والجـرائـر حـبـلـى
مـنـظـر الخـوف تـعـتـريـه المنـيّـه
قـبـضـة الـريـح واقـتـلاع الـضـواري
أجدب الـصـبـر فـي الـقـلـوب الـنـقـيّـه
أثـبـاتٌ عـلـى الـهـوان ورامٍ
يجـعـل الجـور حـكـمـةً أبـديّـه
وانـتـهـاك عـلـى المحـارم يـسـري
وانـتـقـام مـن الـزهـور الـنـديّـه
سـطـوة الـغـدر والـلـذائـذ تُـنـسـي
أنَّ فـي الـنـاس محـنـةً وقـضـيـه

والـزعـامـات حـولـهـا ألـف بـاغٍ
والـعـصـابـات خـطـة ومـزيّـه

وعـمـيـل لـدى المنـاصـب يـعـطـى
قـبـل شـنّ الحـروب أسـنـى عـطـيّـه

أيهـا الـصـامـتـون ضـاع هـدانـا
وغـدا الـعـدل قـصـة وهـمـيـة

ساريَ الـليل هـل سـمـعـت الـتـنـادي
وشـكـاة حـروفـهـا عـربـيـة

قـد كـتـبـنـا عـلى جـدار الـثـواني
قـصـة الـظـلـم محـنـة الأبـديـة

(ب) **مساكب النفس**: ولأنَّ الشاعر يرسم ويرتِّب دواوينه كما يرسم ويرتب السياسي الماهر جدول أعمال العام خبيراً بمطالب القاع ومطامح السقف ومواجع النفوس ومباهجها. وذلك سرّ لا يعلمه إلا الحيّ القيوم ثمَّ الشاعر. وقليل من الناس. أحسبني واحداً منهم - وإن كنت بعيداً عنه وغريباً عليه. ولكنه تعارف الأرواح وتآلفها - فإنَّ ذلك الرسم والترتيب لدى شاعرنا ضروري حيوي لا يعلمه إلا قليل كسرِّ عدة أصحاب الكهف الذين كان يقول عنهم ابن عباس حين يتلو (ما يعلمهم

إلا قليل) فيقول: أنا واحد من هذا القليل.

أقول لأنَّ ذلك كذلك فإني آثرت أن تكون قصيدته (أنا يماني) التي أوردها آخر الجزء الأول في هذا الديوان الخامس فوضعتها في غرة جزئه الثاني من ديوانه الخامس مراعاةً لانديا‌حات الشاعر وتجاوب الدواعي. وأنا موقن أن شاعرنا لن يرتاح لوضعها في غرة هذا الجزء الثاني غير أنَّ حرصي على اتساق النغم الشعري الحزين أواخر جزئه الأول من ديوانه الخامس جعلني أضعها هنا توضيحاً للبصمة اليمنية في تكوينه الشعوري والوجداني.

هذه واحدة وثانياً لعلمي بما قام من حرج بين الشعبين الشقيقين بعد قيام ثورة سبتمبر ١٩٦٢م وإعلان الجمهورية وسائر الوقائع في مجرى الأحداث معروفة.

ثالثاً: للتأكيد على ما أصيب به اليمانيون من بعضهم في بعض الأدوار وبعض الأقطار مما تشير إليه الأبيات التالية من قصيدته:

ومـنَّـا أمـة الأقـيـال كـانـت
فـسـلْ (بـلـقـيـس) تـدري المالـكـينا

وكـــلّ بـــلاد أمـــتـــنـــا يـــمـــانِ
و(جـــرهـــم) أمـــةٌ مـــنـــا وفـــينا

وســـل آثـــار أمـــتـــنـــا وعـــدْ بي
أرى (ســـبـــأ) و(حمـــيـــر) أو (رعـــينا)

حـضـارتـنـا حـروف مـن ضـيـاء
كـتـاب لم يـزل يحـوي الـثـمـينا

فـمـن قـحـطـان أنـفـاسٌ تـوالـت
ومـن (عـدنـان) أنـفـاس تـلـينـا

فـنـحـن الـعُـرب بـالـتـيـجـان كـنـا
غـســاســنــة مــنــاذرةً مــعــينا

يـمـانـيون أصـلاً وافـتـخـاراً
وكـلُّ الـعُـرب مـن دمـنـا بـنـينا

يـمـانـيون فـي شـرقٍ وغـربِ
ولـولاهـم لما قـلـنـا اليمـينا

يـمـانـيون والإسـلام يـدري
بـأنّـا الـشـامخـون الـفـاتحـونـا

يـمـانـيون يـا سـيـف بـن يـزنِ
وفـرسـان فـمـا نـخـشـى المنـونـا

وتطفئنا الشموع ونحن شمس
أضأنا عتمة الدنيا سنينا
وحجّبت المنابر عن رؤانا
كأنّا لم نكن إلا ظنونا
تباعدنا الجآذر عن ذرانا
وتمتصُّ الرحيق وتزدرينا

بعد هذا التوضيح الذي كان لا بدَّ منه ندخل مع شاعرنا جزأه الثاني من ديوانه (مساكب النفس) وأرافق الشاعر وهو يفرغ من ستة عشر قصيدة أكثر مفرداتها: الأيام - العمر - الدهر - الزمن - الزيف فهو مترع القلم والنغم بالمرارات والألم حتى وهو يبتسم بمشقة لابنه مهند وحفيدته مارية. وتأتي إفضاءته السابعة عشرة في خمسة أبيات قوية عامرة

(بيت القصيد) ص ١٣٥:

لملمْ حروفك عن سيوفي
وكفاك تهزأ بالأنوف
غضبان من صدق الرؤى
ولكم عديت على طيوفي

تستكره الماء الزلال

وتحتسي ماء الصُّروف

للشعر فرسان الحروف

فأين فرسان الظروف؟

شتّان ما بين الصهيل

وبين مأمأة الخروف

وإنَّ تعاقب الطعنات وتوالي الغدرات جعلته لا يرى الجدير بالشعر إلا ذرب اللسان كما في آخر قصيدته (بلى يستوون).

ودع القريض فليس من أربابه

من لم يكن ذرب اليراع أصيلا

وهكذا تجني البيئة الشوكاء على بلبلها ليستحيل صقراً جارحاً وإلى ذلك أشار الأول حين قال:

ومن خلفها البلد المقشعرُّ

يردُّ ظباء المهارى ضباعا

ولك أن تقرأ قصيدته (السندباد) وهو يلخّص حصيلة النظر الصائب والإبداع الرائع

يـا سـائـلاً عـنـي وعـن شـعـري الـبـديـع
طـلـقـت أوراقـي وأحـلام الـربـيـع

قصيدته (التراث) من طواله الجياد تستوقفني فيها هذي:

أمَّـة نـحـن بـاليقـين نـصـرنـا
نـمـتـطـي صـهـوة الـريـاح (خـيـول)

. . . . هكذا.

وبين ركام القنوط ومرارات الإحباط تبسم زهرة الأمل وتعود له آماده الخضراء وأحلامه الغراء. (ها قد تعلمت)... ص ١٤٢:

سـأمـنـح الـزهـر أطـيـابي وعـاطـفـتـي
أعـيـش لـلـسـوسـن الـوسـنـان أرعـاه
قـد يـولـد الحـب مـن أجـداث آخـرتي
وقـد يـفـارق حـزني كـلَّ شـكـواه
دعـي ضـيـاءك مـراراً عـلى سـهـري
واستـلـهـمي مـن بهـيـج الـنـور أسـنـاه
سـتـألـق الأمـنـيـات الخـضـر مـورقـة
ويـبـسـم الـغـيـب بـالـبـشـرى ونـحـيـاه

وسـوف تـرحـل أيـام مـبـرَّحـةٌ
كـأنهـا حُـلـم... يـمـضـي ونـنـسـاه
هُـزِّي الـنـخـيـل جـذوع الـنّـخـيـل مـثـمـرةٌ
واسـتـقـبـلي فـي ربـيـع الـعـمـر أحـلاه
واسـتـبـشـري بـالـغـد الآتي يـضـاحـكـنـا
وسـوف يُـشـرق فـي عـيـنـيـك بـشـراه
هـا قـد تـعـلـمـت أن أحـيـا بـلا نـدمٍ
وقـد يـعـود لـصـادي الـعـمـر أنـداه

غير أنَّ تلك السحابة الوردية سرعان ما تنقشع ثم تهبُّ الخماسين على عادتها مطوِّحة بكل جميل نظير. ففي قصيدته (عقوق) نسمعه يخاطب صديقاً له نعته بأنه الشاعر المتوّج وأنه من بيت النبوة يخاطبه بهذا الأسى المذيب:

كـاتـمٌ أنـت لـلأسـى يـا صـديـقـي
وجَـلـود عـلـى شـقـاء وضـيـق
وعـلـى وجـهـك المخـضـب شـكـوى
سـكـنـتْ فـي الـغـروب بـعـد الـشـروق
يـا صـديـقـي وأيّ عـمـر تـولّى
فـي قـطـاف المنـى ونـبـض الـوثـوق

ضاحكٌ أنت في الدُّجنة تضوي
حالكات الرؤى بوادٍ سحيق
ديمة بالرضى الحنون تجلَّت
عن رضا طاهرٍ وقلبٍ رقيق
أمحلَ الروض يا صديق وأودتْ
بالرياحين عاصفات الحريق
وترامتْ بنا المسافة نحكي
عن نفوس تضاءلت بالسموق
عن زمانٍ يُريع وهو مشوق
وجمال يُميت كلَّ مشوق
زهرة تلك أم بقية عطرٍ
فاح منها الشذى شهيَّ الرحيق
صامت والمنى إليك تهادت
رغم قيد على الجناح الطليق

وكم أتمنى وأنا ما زلت في ثنايا ديوانه الخامس لو أنَّ هذا القلب المُجهد والشعور المكدود التفت إلى الريف وجمالياته المنثورة ولو أنَّه حدثنا عن انطباعات رحلاته إلى وديان العروبة الخضراء أو إلى بلاد الألب في اليونان. وهو الذي جرى له الاحتفاء هناك. ولكنَّ تمنياتي تذهب

بدداً فجوّه الكئيب يحاصره من جهاته الأربع ولا يزال مشدوداً إلى ما يجري فيه من مثل حديثه عن ذلك الأرقم الخائن الغدّار. ونحسبه سيأتينا بعدها بما يريح ويبهج فلا يكون تاليها إلا هذا:

«يا ضدِّي» ص ١٤٨:

يـــا ضـــدّي يـــا كـــلَّ الـــضِـــدّ
يـــــا ودّي يـــــا ويـــــل الـــــودّ
عـــمـــرٌ بـــالخـــوف وأيـــام
تـــتـــحـــدث مـــن عـــنـــق الـــوجـــد
عـــن وجـــه كـــان يـــؤانـــســـنـــا
عـــن عـــطـــرٍ مـــن أحـــلى الـــورد
مـــن عـــذب الـــطـــيـــب يـــســـاقـــينا
ومـــضـــى بـــالحـــب فـــمـــن يـــفـــدي
يـــا ضـــدّي يـــا كـــل الـــضـــدّ
يـــــا أحـــــلى مـــــن مـــــاء المزن
ونـــســـائـــم أطـــيـــابٍ نـــشـــوى
تـــنـــهـــلُّ بـــإيحـــاء الـــفـــن

ويـــمـــرُّ الـــدهـــر فـــلا نـــدري
إلا والـــعـــمـــر إلى وهـــن
أطـــلال مـــن صـــوت الـــذكـــرى
ودعـــاء مـــن قـــلـــب الحـــزن
وبـــقـــايـــا أطـــيـــاف جـــذلى
مـــالـــت لـــلـــظـــلّ عـــن المنِّ
يـــا ضـــدي يـــا كـــل الـــضـــدِّ
حـــســـبـــي مـــن ليلٍ لا يـــبـــقـــي
يـــتـــركـــنـــا كـــالـــروض الخـــالي
كـــطـــرائـــح نـــخـــلٍ مـــســـتـــلـــق
تـــلـــقـــينا الـــريـــح وتـــبـــهـــرُنـــا
بـــقـــلائـــد لـــكـــن لـــلـــرقِّ
فـــكـــر فـــي وقـــتٍ مـــرتـــابٍ
يـــغـــويـــه الـــوهـــم عـــن الحـــق
يـــا ضـــدّي يـــا كـــلَّ الـــضـــد
بـــالحـــبّ وآمـــال الـــصـــبّ
بـــالأمـــس الـــضـــاحـــك فـــي غـــدنـــا
وشـــفـــافـــيـــة الـــزمـــن الـــعـــذب

بـالـشـوق الـنـائـم فـي زمـنٍ
قـد أعـيـا أنـواع الـطـب

يـا داء الـظـلـم وداء الـوهـن
وداء مـن بـعـض الحـبّ

يـا ضـدّي يـا كـلَّ الـضـدّ
لا تـعـسـف آمـال الـطـيـف

يهـنـيـك الـدهـر فـتـجـزيـه
جـحـداً مـدهـونـاً بـالـزيـف

والأرض لـهـا ربٌّ عـالٍ
يـقـصـيـهـا عـن درب الحـيـف

والإنـس مـقـادرهـا تـتـرى
فـلـم الـتـخـويـف مـن الخـوف

يـا ضـدّي يـا كـلَّ الـضـدِّ
روض الـتـفـاح بـلا طـيـر

صـدئـت فـي الـعـمـر مـنـاهـلـه
وتـرمَّـد غـصـنٌ فـي الـزهـر

يـا عـمـري يـا أحـلى عـمـرٍ
يحـيـا لـلـنـاس ولـلـخـيـر

يتواثب كالبحر الطامي
يهدي باللحم وبالدر
يا ضدّي يا كل الضد
أجناس من نفس الجنس
آمالٌ أطياف تترى
إحساس من جنس الحسّ
أعمار تقضي أو تمضي
ونفوس تشرى بالبخس
يا عصر الضيم وعصر القهر
وعصراً يؤذن بالنَّحس
يا ضدّي يا كلَّ الضد
في صمت العالم والفذّ
أصداءٌ من صمتٍ عات
في عصرٍ آخره يؤذي
ورياح تعصف بالسَّلوى
ووجوه منظرها يقذي
أهواء تبحر في الدنيا
وعييّ في كوخ يهذي

ونلتقي قصيدته عن جازان مستبشرين بما تقدمه من

روح وريحان ولكننا نصدم به متجاوراً مع الحُمَّى الجاثمة هناك. قصيدته (في مهب الريح) تشرح الصدر وتجدد الحياة بهذا الذوب المشرنق بألوان الطيف وزهو الطبيعة واستبدادية الجمال لو أنَّها سلمت من هذه الشطرة:

(وأبعث أنظاري تنير لك الطُّرق)

وهي رغم هذا فاتنة آسرة. ص ١٥٦:

وما زلتُ عذريَّ الصبابة يا شوق
فآمالنا حبّ وأحلامنا عشق
نجوب فتون الحب نستلهم السَّنا
نسير فلا غربٌ يضير ولا شرق
أحبُّك في ماضي الزمان وفي غدي
ويشهد قلبي في غرامك والخلق
شدا رجع ألحاني إليك مغرِّدا
وأسمعتك القلب الذي شفَّه الخفق
وأنتِ شميم الزهر ينهلُّ عاطراً
وصبحي الذي يضويه ملمحك الطلق
على دوحةٍ جذلى تندَّى بها الشذى
تناظرنا من بين أعشاشها الورق

مضمّخة بالنور في موكب المنى
ترقُّ ولا يدنو إلى مثلها رق
تعانقها الأحداق حبّاً إذا بدتْ
ويهدأ في أعماقها الريح والبرق
لها الخافق الصادي إلى قطرة الندى
لها العمر والأحلام والورد والشوق
تميس فتستعدي الفتون على الصبا
ويعجز عن توصيفها الشعر والنطق
لأنت ربيع النفس في مهمه المدى
وسحرك من طيف الملائك مشتقّ

وفي قصيدته (انفصام وارتطام) يطالعنا مطلعها المتحدّي:

أنا لا أعيرهمُ اهتمامي
فالنِّسر يهزأ بالرخام

وأحار بمفردة «رخام» أهو يمدحهم من حيث يهجوهم فيراهم كما أشار البيت. وأعود إلى القاموس: أجد: (رخم) من معانيه الطائر ومفردته بالهاء رَخَمة. ورُخمى. ورُخامة من معانيه ـ والنص للقاموس ـ حجر

أبيض رخو وما كان منه زوزوريا فمن أصنافه الحجارة. أترك كل هذا لشاعرنا وله أن يختار.

ثم يكون اختتاماً لمساكب نفس هذا النغم الجميل مع وعن جميلته. وفي البيت الخامس منها رسم بالكلمات لظفيرتها المنسدلة على طول قوامها. إنّ مواصفات الجمال هنا ما زالت فجرية فطرية بعيدة عن أنامل الكوافير:

يـــا أنـــتِ يـــا عـــودَ الأراكِ
يـا فـخـر حـسـنٍ قـد نـمـاك
ألـقـاكِ طـيـفـاً هـائـمـاً
وأنـــا المحـــلِّـــق فـــي ذراك
أشـــتـــمُّ أنـــفـــاس الـــشـــذى
فـــأحـــسُّـــه أحـــلى شـــذاك
كـل الـنـسـائـم عـفـتـهـا
إلا نـسـيـمـاً مـن نـداك
أرخـــي المظـــفَّـــر إنـــه
يـمـشـي يحـفُّـك مـن وراك
والـغـيـم فـي حُـضـن الـسـمـا
لـون الـسـنـابـل فـي رؤاك

إني أراك كـــــمـــــا أريـــــد
فـــمـــا مـــلـــلـــت أنـــا ســـنـــاك

إنّي أبـــثـــك لـــوعـــتـــي
ضـــمّـــي هـــواي إلى هـــواك

وخـــذي الأمـــاني كـــلـــهـــا
إلاكِ أمـــنـــيـــتـــي مـــنـــاك

(ح) مرافىء الدمع: وهذا هو القسم الأخير من ديوانه الخامس أفرده لتشييع الراحلين من أحبابه الغالين. وإذا كانوا يقولون: (قُل لي من صديقك. أقلْ لك من أنت) فإنَّ الأسماء التي تناولتها مراثيه هي النخبة في أجيال هذا القرن الهجري الخامس عشر وشيء من الذي قبله. ومن أسمائهم نعرف بأي نخبةٍ امتلأ قلبه وعلى أي طرازٍ من الرجال سال دمعه. إنَّ فيهم مفتي الجزيرة وشيخ رابطتها العلامة المجتهد الزاهد عبد العزيز بن باز وزميله علماً وعملاً ابن عثيمين ويحيى المعلمي وهذا الاسم لا أشك في يمنيته ذلك أن العلامة الزاهد الراحل عبد الرحمن بن يحيى المعلمي ـ وآل المعلمي صدّيقون في النسب ـ وقد توفي عبد الرحمن بن يحيى المعلمي ساجداً بالحرم المكي وعلى كنوز مكتبته اعتمدت دور الطبع ومنها

أصل كتاب (تذكرة الحفاظ) ولا أدري ما إذا كان يحيى المعلمي المخصوص بالمرثاة الأولى من هذا القسم هو ابن عبد الرحمن المعلمي أو من قرابته. كذلك من أعلام هذه النخبة شاعر الشام والعروبة والإسلام عمر أبو ريشة.

كما أنَّ فيهم والد الشاعر الشيخ الفاضل محمد صالح باشراحيل تغمدهم الله بواسع رحمته ورضوانه. وكان طلال الفنان المعروف بالمداح والمعروف في اليمن بالجابري من محافظة شبوة ممن فاضت عليهم شآبيب مراثيه.

(٦) ديوانه السادس (سيوف الصحراء) يستهلّه بإهداء لسيد الجزيرة عبد العزيز آل سعود ثم بتغريدة لفارس العرب الأمير عبد الله بن عبد العزيز. وبالمناسبة فإني إذْ أدخل هذا الديوان السادس صباح الثلاثاء ٣ ربيع آخر سنة ١٤٢٤ هـ/ ٣ يونيو سنة ٢٠٠٣م فإنَّ التقاءً مصيرياً يقوم هناك في شرم الشيخ يحضره عبد الله بن عبد العزيز ومعه رئيس جمهورية مصر محمد حسني مبارك وملك الأردن عبد الله الثاني وملك البحرين محمد بن خليفة. ومن جانب آخر يحضر جورج دبليو بوش رئيس

الولايات المتحدة الأمريكية. ذلك الاجتماع الهام والخاطف من أجل تناول الصراع العربي الإسرائيلي وإمكانية الاتفاق على حلول مناسبة فكان مناسباً غاية التناسب فنسمع باشراحيل يخاطب في إجلال وإكرام فارس العرب عبد الله (ص ١٢):

وأنشدت فيك عبد الله ملحمة
أصداؤها في لسان الدهر تغريد
فأنت للعُرْب آمال محلِّقة
وأنت نبع إلى الأحباب مورود
وحُسن طيبك تُغرينا نوائلهُ
ودوحة النبل ترنو حولها الصّيد
أجلْ نحبُّك عبد الله في وطنٍ
يضيئه من سناك العدل والجود
يا أيها الطود غنَّى الشعر واحتفلت
بك الأزاهر والأمصار والبيد
حملت عن كاهل الأيام غربتها
ومنك يعلو عمادٌ وهو معمود

ويلتفت الشعر في أكثر من قصيدة إلى الرجل الذي

أمضى أكثر من سبعين عاماً في خدمة الله والوطن فهد ابن عبد العزيز وقد صاحب اليوم الأول لميلاد المملكة وأذاب الليالي والأيام في صون حماها وتجميل الحياة فيها حتى صارت أنموذجاً في الدول النامية (ص ٢٧):

يـــا رؤى الـــدهـــر فـــي بـــلادي مجـــدُ
مـــلـــك نـــافـــذ الـــبـــصـــيـــرة فـــهـــدُ

أيُّهـــا الـــســـاهـــر المعـــنَّـــى بـــشـــعـــبٍ
نـــظـــر الحـــق فـــي جـــبـــينك عـــهـــد

قـــد غـــفـــى المجـــهـــدون إلاك عـــين
قـــد جـــفـــاهـــا رقـــادهـــا فـــهـــي ســـهـــدُ

لـــك حمـــل الـــهـــمـــوم فـــيـــمـــا ابـــتـــلينـــا
ولـــنـــا فـــيـــك بـــالـــفـــطـــانـــة ســـعـــد

أنـــت وجـــه الخـــيـــرات فـــي كـــل ربـــع
يـــتـــبـــاهـــى بهـــا الحـــجـــاز ونـــجـــد

والعجيب أن قصائده هذه وما قبلها جاءت دالية دالية. وفي الأمير بندر الخير بن عبد العزيز يقول وقد جاء زائراً البيت العتيق وأم القرى (ص ٤٥):

أميرنا بندر بالحبّ ضمَّخنا
ومنه يسري الشذى والورد والعود
أحبَّك الناسُ والأنداء ماطرة
واستلهمت من شذا أعطارك البيد
والبشر يشرق من عينيك مبتهجاً
وأنت نبعٌ إلى الأحباب مورود
هشَّت إليك قلوبٌ أنت تسكنُها
وأنت فيها مدى الأيام محمود
هنا الحياة هنا قلبُ الأنام. هنا
سعد وخيرٌ وآلاءٌ وتمجيد

وفي ثالث الثلاثة حاملي أمانة العهد والبلد فهد، عبد الله، سلطان يقول أبو صالح ص ٥١:

سلطان يا عرف الشَّذى
يا بسمة الزهر النضيد
يا دارة العزّ المكين
وروضة الكرم الغريد
يا صاحب القول الفصيح
وصاحب الرأي السديد

ومـــــنـــــارة بـــــين الـــــرؤى
وســـــلالـــــة المجـــــد الـــــتـــــليد
يـــــا ابـــــن الأكـــــارم كـــــلـــــهـــــم
(عـــبـــد الـــعـــزيـــز بـــن الـــســـعـــود)
مـــن مـــبـــلـــغ الـــدهـــر الـــقـــديـــم
بـــروعـــة الـــزمـــن الجـــديـــد
ســـلـــطـــان يـــا درع الأمـــان
ونـــجـــدة الـــعـــمـــر الـــكـــنـــود
ســـلـــطـــان يـــا وجـــه الـــربـــيع
ونـــشـــوة الـــدهـــر الـــرفـــيـــد
ألـــفـــيـــت بـــابـــك مـــشـــرعـــاً
لـــقـــريـــبـــه مـــثـــل الـــبـــعـــيـــد
فـــدخـــلـــتُ مـــبـــهـــور الـــسَّـــنـــا
وخـــرجـــت أرفـــل بـــالـــبـــرود
فـــاهـــنـــأ بـــأنـــســـام الـــرُّبـــى
مـــا بـــين أقـــيـــال وصِـــيـــد
مـــســـتـــقـــبـــلاً عـــمـــر المُنـــى
بـــالخـــيـــر مـــن جـــودٍ لجـــود
وفي العين الساهرة والساعد القوي حرصاً على أمن

الوطن وسلامة الأهلين وعزّ الإسلام الأمير نايف (ص ٦٥):

إن أكنْ قد بلغت حد التمادي
في شجوني وسال شوقاً مدادي

فلأنَّ الأمطار بعض انهماري
والأعاصير فلذةٌ من فؤادي

يا زماناً يطول فيه التعادي
وغريراً أراد كبح جوادي

كم ترامیت في وجوه الليالي
وترفّعت عن سلوك الفساد

أيها الصبر يا سفينة عمري
لك أسلمت دفّتي وقيادي

يا فؤادي وأنت تحيا وتمضي
لا تبدَّلت رغم ظلم الأعادي

لي نبيل من الرجال جواد
وإلى روضة أرحت سهادي

نايف للعلى وبالحب يبقى
أمل الحائرين في كل وادي

وفي ماجد الأمراء بن عبد العزيز هذه الأنفاس القلبية ص ٧٣

سيدي يا كلَّ فوح الياسمين
وصدى صوت المروءات الدفين
والندى الضاحك في وجه الأماني
وسنا الإشراق في هدب الحنين
يا أميري وقصيدي فيك يسمو
كم أغنّيك على مرّ السنين
بلبل يا سيد الآمال يشدو
فيك ألحاناً من الشعر المبين
يسهر الليل على أحلام صبحٍ
ينثر النور على القلب الحزين

ويلتقي الأمير أحمد بن عبد العزيز شادياً باسماً، ص ٨٧:

هيا أصدحي وغرِّدي
مرحى بكم يا سيدي
تهنيك أعطار المنى
تطيف عمرك الندي

تشجيك أفراح السَّنا
على بساطِ عسجد
وغيمة جذلى سقت
في روضة وفدفد
جاء الزمان ضاحكاً
للبلبل المغرِّد
إن أشرقتْ أعيادنا
فمن هلال أحمد

وتتوالى المجرة السعودية ملء الديوان فمن الأمير عبد المجيد إلى الأمير الشاعر عبد الله الفيصل تهنئةً بنيله وسام باريس سنة ١٤٠٥ هـ إلى مؤسس وراعي مؤسسة الفكر الأمير الشاعر خالد الفيصل وفي الأمير مشعل بن عبد العزيز ثم في قصر الأمير منصور بن بندر بن عبد العزيز وهو من روائع العهد السعودي الخالد (ص ١٣٩):

جنَّة تلك حول قصر منيف
أم خيال يجول بين الطيوف
قصر (منصور) للخلائق يروي
سيرة العزّ في الزمان الوريف

روعـــةٌ مـــن روائـــع الـــفـــنِّ تحـــكـــي
روح (نـــجـــدٍ) وبـــارقـــات الـــســـيـــوف
إن أردتَ الـــشـــتـــاء تـــلـــقـــاه بـــرداً
فـــي رحـــابٍ مـــن الـــهـــواء مـــطـــيـــف
أو أردت الخـــريـــف يـــنـــســـاب ســـحـــراً
مـــن رقـــيـــق الـــنـــدى وصـــوت الحـــفـــيـــف
وهـــو فـــي الـــصـــيـــف صـــبـــوة ونـــســـيـــم
يـــتّـــقـــي الـــنـــاس فـــيـــه حـــر المصـــيـــف
فـــالـــثـــريَّـــات والـــنـــمـــارق يحـــيـــي
ضـــوؤهـــا كـــل تـــالـــدٍ وطـــريـــف
والـــســـجـــاجـــيـــد والأزاهـــر فـــيـــهـــا
مـــثـــلـــمـــا الـــدوح فـــي صـــبـــاح ظـــريـــف
روعـــةٌ مـــن روائـــع الحـــســـن تـــغـــشـــى
واصـــفـــيـــهـــا نـــضـــارة الموصـــوف
والـــسَّـــنـــا الـــضـــاحـــكُ الـــذي يـــتـــغـــشَّـــى
وجـــه مـــنـــصـــور فـــي عـــيـــون الـــظـــروف

(٧) بوح النسايم: ديوانه السابع: هو من حجازياته الدارجة والنجدية البدوية وكان لذلك وقعه الحسن في نفسي فكم تمنيت أن أسمعه منذ أن قرأت للبحاثة

السعودي عبد الله ابن الخميس نصوصاً من هذا الشعر الشعبي زادتني حبّاً له وتعلقاً به.

وهذا الشعبي الملحون سمّه نبطيّاً أو حمينيا أو زجلاً أو موالياً أو دوبيتا أو موشحاً فهو كل هذا المستحدث من القياثير الطليقة طلاقة الصحراء العذبة عذوبة الخمائل والغدران تفتّقت عنها النفسية العربية بعد طول احتباس في أوزان الخليل وقواعد سيبويه لتؤدي في تلقائية وعفوية بوح القلب وتنفسّات الوجدان. لا معنى لأن يعزف عنه أو يحمل عليه أحد ما دام شراعاً من أشرعة القلب تؤدي أشجان الزوارق وهتفات النوارس وهل الشعر إلا زغردة محبور أو آهة مكلوم. ولهذا الشعبي الملحون ـ دليلاً على صدق انطلاقته وفجرية روحانيته ـ إشراقات مكتشفة للقادم الآتي تفوه بها الموهبة المتصلة على أمّيتها بمصدر الحقائق الأعلى فتكشف للجيل بعد الجيل عن حقائق ما زالت متلفعة بحُجب الغيب فإذا جاء إبّانها سطعت وأسمعت لأنّها الحق المبين. وقد أوردت في كتابي (كيف غنّت تهامة) الكثير من الأمثلة في هذا نجدية شرقية وتهامية غربية. وقصيدته (بليّة) الثانية في ديوانه السابع عداً الأول

نوعاً (بوح النسايم) هذا الديوان الطري الندي تحمل من التوفيقات ما أحسب المعربة لا تفي نهوضاً به في حيزه الشعري كمّاً. إنه يتحدث فيها عن هذه الغرارة المكّارة (الدنيا) بلغةٍ تتفجّر طراوة وسراوة وبأسلوبٍ ليس منبرياً ولا تسطيحيّاً وإنَّما هو تخيُّلي درامي ص ١١:

عـطـرت بـك صـبـحـي وضـوّيـتْ بـك ليلْ
وطـوّفـتْ بـك فـوق الـثـرى والـثـريَّـا
واسـهـرت أحـلامـي لـنـاظـرك بـالحـيـلْ
أتخـيـل إظـلال المسـافـات هِـيـا
يـا طـيـفـهـا جـاني عـلى صـهـوة سـهـيـل
وصـوتٍ عـرفـتـه صـوتهـا قـال هـيّـا
قـلـت الـضـيـافـة تـشـربي قـهـوة الـهـيـل
وإكـرامـك الـلـيلـة مـن الـضـان مـيّـا
حـطَّـت ركـايـب شـمـسـهـا وأشـرق الـليل
وتـبـسَّـمـت دنـيـا المخـالـيق ليًّا
قـالـت نـبـي نـرحـل عـن الـدارْ والـغـيـلْ
نـبـلـغ مـدار الـشـمـس نـطـويـه طـيـا
جـابـتْ أصـايـل تـسـبـق الـوقـت بـالخَـيـل
قـلـت الـسـمـوحـه مـركـبـي غـيـر ذيّـا

أنـا أركـب أبـروق الـسـنـا طـاهـر الـذيـل

وقـلـب لـو الـدنـيا تـقـسّـيـه عـيّـا

وقرأت لمجيدين عديدين في هذه المضرية الفصحى جاهلية وأسلاماً. كما قرأت لهذا الباشراحيل في دواوينه السالفة. ما أمتع وأرغد. ولكنني في حفيدته (ميرال) صالح بهذه الملحونة المغزولة من شغاف القلب وشعاع الوجدان ما رنّحني وغاب بي في غيوم ملونة وأراجيح وردية ص ٣١:

إلى حفيدتي ميرال بنت صالح شراحيل:

هـي تـشـبـه طـيـوف الـسـنـا أو عـطـر الآمـال

طـيـر الـبـشـايـر فـي خـطـاهـا تجـيـبـه

الـقـاكِ فـي وعـد المطـر مـزن هّمـال

وألـقـاك فـي كـل المعـاني الحـبـيـبـه

جـيـتـي مـنـابـع حـب واسـتـبـشـر الـفـال

وجـيـتـي أحـبـك فـي ثـواني عـجـيـبـه

ولـو تـسـألـك نـجـمـه عـن الـبـدر وشْ قـال

قـولي تـعـشّـقـنـي يـبـيني خـطـيـبـه

لا هـزّت جـذوع الـنـخـل قـلـب مـيّـال
تهـتـاج أشـواقـي وأحـسُّـك قـريـبـه

محـلاك يـا غـصـن عـلى الـدَّوم تخـتـال
محـلى الـقـمـر فـيـكـي ونـورك يـذيـبـه

مـيـرال لمحـة بـرق والحـسـن مـيـرال
أبـاركـك بـالـلـه يـصـونـك حـبـيـبـه

وما يشرح الصدر ويرضي كبرياء اللغة استخدامهم الدقيق للمفردة:

أشـتـاقـهـا ديـمـه ومـا هـي غـمـامـه
ويـشـتـاقـنـي بـالـصـدق أحـرار وأشـراف

فما الفارق بين الديمة والغمامة؟ وكلتاهما من السحاب إنَّ الديمة هي تلك التي يدوم مطرها في سكون بدون برق أو رعد وعن ذلك يقول طرفة:

فـسـقـى بـلادك غـيـر مـفـسـدهـا
غـيـثٌ يـلـثُّ وديـمـة تهـمـي

وليس كذلك الغمامة فإنها سريعة الزوال، وإلى ذلك يشير بيت كثير:

وإني وتهـيـامـي بـعـزَّة بـعـدمـا
تخـليت عـمَّـا بـيـنـنـا وتخـلَّـت
لـكـالمرتجـي ظـلَّ الـغـمـامـة كـلـمـا
تـفـيَّـأ مـنـهـا لـلـمـقـيـل اضـمـحـلَّـت

وما أجمل استعراضه في نبل واقتصادٍ في الكلمات لأخلاقه وأخلاق ذويه ص ١٠٨:

أبـوي مـن قـبـلـنـا يـمـشـي مـع الـنـيّـه
وحـنـا ورثـنـا الـوفـا مـن ورد بـسـتـانـه
حـنَّـا هـل الحـب مـا غـيـره لـنـا غِـيـه
وقـدر الـرجـاجـيـل فـينا مـا رخـصـت شـانـه
مـا هـي سـحـابـة مـطـرْ فـي وقـت صـيـفـيـه
ونـفـوسـنـا لـلـنـشـامـى دوم عـطـشـانـه
وإن كـدّرتـنـا نـوازع غـدر مخـفـيّـه
نـقـوى عـلـيـهـا بـإسـم الـلـه وقـرآنـه

ويطيب لهذا السري العلي مصاحبة الأفق الراقي فلا يسفّ حتى وهو يعاتب أو يوبِّخ:

طـيـر الـسـعـد عـنـك مـسـافـر عـلى الـدوم
وطـيـور سـعـدي فـوق عـالي جـبـيني

ومن جديده الشيّق خطابه للحبيب حرصاً على الحاضر ومشفقاً من تقلبات الغد: (حسّ النور) ص ١٣٨:

خذي كل الزمان عطور

خذيني واشعلي بي النور

أخاف الشمس لا تطفي

بريق الحب في عينك

ولا تضوي الليالي بدور

وأخاف ما نعرف

الماسه من البلّور

نضيع من حيرة الخاطر

وما فينا أحد شاطر

على المقدور

أسافر بك مع الوحده

وثالثنا رفيق الحب

بالإحساس يغمرنا

وصوت البلبل الشادي

يبي يغرّد لكن مأسور

تعالي لا يغيب النور

سرحت بالفكر والفكرة

وشفتك فرحتي بكره

تخيلت كيف نتخاصم

وكيف الخيل والمهره

وكيف الغيره والحسره

لو قلت أعشق الزهره

ومين راح يعتذر أول

واستنّى وتستنّي

ويصلحنا ابتسام العين والنظره

وفي أيامنا الحلوه

أقولك تشبهي الرسمه

تقولي تشبه النسمه

وكل أعيادنا خضرا

تعالي نسبق الأحلام

والأشواق والأيام

ولا تتعذري ببكره

وما تدري عن المقدور

تعالي لا يغيب النور

خذي كل الزمان عطور

أخاف الشمس لا تطفي

يجف الورد في كفي

ومن عطفك ومن عطفي

تعود طيور

نجمّع حبّنا المنثور

ونمزج حسَّنا الدافي

بحس النور

(٨) أقمار مكة: هو ديوانه الثامن ويفتتحه بابتهالات ضارعة إلى مالك الملك سبحانه ص ١٧:

أسرجت نورك بعد الهمّ والفرق
وقد رأيناك في مدٍّ من الألق

ضاقت بنا معضلاتٌ أنت فارجها
يا مشرعاً بابه في كلّ منطلق

كمْ تسكنْ الآه قلباً أنت خالقه
وكم يطول بنا دهر من الملق

وكم يناوئنا وغدٌ ويجرحُنا
وكم نصابر من عسفٍ ومن حُرق

لكنَّك الله تحدونا عنايته
رغم المكيدين بالأضرار والنزق

ما كنت تتركنا يوماً على كربٍ
حتى تضيء لنا الأنوار في الغسق

يـا سـيـدي يـا مـلاذي جـئـت مـلـتـمـساً
درء الـشـرور بـمـا فـي سـورة الـفـلـق

ويقول بين يدي سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم ص ٢١:

سـيـد الخـلـق والمقـام جـلـيل
إنَّـك الـهـدي والـسَّـنـا والـدليل
الأزاهـيـر فـي رحـابـك تـنـدى
ودمـوع عـلى ثـراك تـسـيـل
يـا أحـبَّ الأنـام فـي كـل قـلـب
نـحـو يـنـبـوعـك الـبـهـي يـمـيـل
(مـكـة) الـنـور والـروابي أضـاءت
والـلآلي تمـاوجـت والـنـخـيـل
ووليد الـرؤى وآيـة حـسـنٍ
صـاغـهـا الـلـه فـهـو خـلـق جمـيـل

وبين يدي الصديق ص ٤٣:

يـا ثـاني اثـنـين كـان الـغـار مـأمـنـه
ورافـعـاً فـي سـمـاء الخـلـق بـنـيـانـا

ومـا أبـو بـكـر إلا روضـةٌ عـبـقـت
طـهـراً وفـوح مـروءات وعـرفـانـا

وبين يدي الفاروق ص ٥٢:

طـلائـع فـي بـكـور الـريـح فـارسـهـا
إعـلامـه فـي ربـى الأقـطـار تـزدهـر
قـد أشـرقـت فـي رحـاب الـقـدس طـلـعـتـه
وطـاول المجـد حـتـى وهـو يحـتـضـر

وبين يدي ذي النورين ص ٥٨:

وأنـت بـالـنـور تـسـتـهـدي بـصـائـره
وأنـت لـلـدهـر تـبـنـي مـا عـلا شـانـا
يـذود والحـق بـعـض مـن خـلائـقـه
والـبـر بـعـض وأبـقـى الـبـعـض إحـسـانـا

وبين يدي الإمام علي ص ٦٨:

(عـلـيٌ) يـا بـطـلاً تـسـمـو مـنـاقـبـه
إن الـنـضـال لـه فـي الـدهـر أبـطـال
أمـطـرت مـزنـة حـبٍّ فـي ضـمـائـرنـا
وعـشـت نـسـمـة فـكـرٍ عـزهـا الـفـال

وعن أم المؤمنين الصدّيقة بنت الصدّيق ص ٧٣:

قد وعتْ ما جاء في القرآن علماً
ورعتْ ما كان حقاً مستبينا

وهي من نور الهدى أضواء فجرٍ
عطَّر الدهر شمالاً ويمينا

وفي مكة وأول بيت وضع للناس ص ٧٩:

لا يغيب الحبّ عنها لحظة
حولها الصادي من الطُّهر سقى

هاتها تشفي جراحات المدى
هاتها تمحو الأسى والفَرَقا

يا هوى العمر ويا ورد الشذى
يا مناراً شامخاً مؤتلقا

وفي جبل النور حيث غار حراء أول ملتقى لنور السماء بقلب النبوة وأسرار الرسالة ص ٨٤:

أيها الغار يا حراءَ تجلّى
كنت صخراً وأنت بالنور سامي

تتملى الشغاف وهي ظماء
وترود القرون بين الزحام

أنـــت رمـــز إلى الـــهـــداة ســـيـــبـــقـــى
مـــوئـــلاً قـــد أقـــلَّ خـــيـــر الأنـــام

وفي الحِبّ بن الحِبّ أسامة بن زيد ص ٨٦:

بـــــاع لـــــلـــــه الأمـــــاني
واشـــتـــرى يـــوم الـــقـــيـــامـــه
صـــــدق الـــــدهـــــر وأوفى
لا يـــــرى الخـــــوف أمـــــامـــــه

وفي قصيدته (حُرّ) متحدثاً عن رحموتية آية الإنعام ورهبوتيتها ﴿قل إنَّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ فإذا بأنوارها الدفاقة ومشاعرها الرقراقة تجعله حرّاً حقاً:

لا تـــدعُـــوَنّي إلا بـــيا عـــبـــدهـــا
فـــذاك عـــنـــدي أحـــب أســـمـــائـــي

يقول باشراحيل (ص ٩٠):

قـــد جـــئـــت حـــرّاً لـــلـــوجـــود
ولـــســـتَ عـــبـــد الأقـــويـــاء
لا تخـــش فـــي الـــدنـــيا ســـوى
الـــديَّـــان مـــن فـــطـــر الـــســـمـــاء

هـــو مـــن يـــضـــرّ ومـــن يـــســـرّ
ومـــن تجـــلـــل بـــالـــضـــيـــاء
إني أحـــبّـــك خـــالـــقـــي
حـــبّـــاً ســـيـــعـــقـــبـــه الـــلـــقـــاء

وهذه ذكّرتني بمقاطع ربَّانية رحمانية. قالها أخٌ له معاصر في اليمن ضمن ديوانه (ألحان ضمير):

بأمر مَنْ؟

بأمر مَنْ؟

يذبحني الهمّ ويشويني الحزن

بأمر من؟

يحوّلان راحتي إلى عذاب

ويجعلاني وحشةً

يفرّ منها الأهل والأحباب

بعد فراري لاجئاً إليك. مسلِّماً أمري

وما ملكتني إليك

وجاعلاً شرعك قائدي

بأمر من؟ بأمر من؟

يذبحني الهم ويشويني الحزن

أيقدرُ الهمُّ؟

أيقدر الحزن؟

أيقدرُ الشيطان؟

أو أي شيء في الوجود أن يخيفني

وأنت ربّ كل شيء

وقد فررت من مخاوفي إليك

أسألك الأمن وأسألك الأمان

لا أبداً لا يستطيع أي شيء أن يخيف

من يعيش في حماك

وإنما الهم وإنما الحزن

عبداك يلسعانني بسوط غيرتك

إن حدتُ عن هداك

أو مال قلبي لحظةً إلى سواك

ومن دعائه الخاشع الضارع الذي تتجاوب معه الجبال كما تجاوبت مع داود (يا جبال أوِّبي معه والطير) ص ٩٢:

يا ربّ عفوك بالبرية

نفس العباد بها شقيَّه

ما ضاق عفوك والرضا

تهفو له كلُّ الرَّعية

فامننْ علينا بالتُّقى

إنَّ الذنوب بنا عصيَّة

مولاي ناجاك الفؤاد

فجُدْ بتفريج البليّة

يا ربّ عفوك إننا

جئنا إليك بحسن نيّة

(٩) ها أنا ذا أدخل مع صباح الجمعة ٧ ربيع آخر سنة ٦/١٤٢٤ يونيو سنة ٢٠٠٣ ديوانه التاسع (وحشة الروح) وكنت أغفيتُ البارحة مع دعواته الضارعة آخر ديوانه الثامن (أقمار مكة) مع مسردٍ قمري شائق استهلَّ بوقفة أمام سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم ثم مع أضمومة شمسية من الصحابة وفي نفسي الاكتفاء بالتطواف مع شعر باشراحيل عند هذي باعتبارها سدرة المنتهى في عروجه الشعري. ومن باب الاستطلاع ليس إلا دخلت هذا الديوان التاسع فإذا مفاجأة ألتقيها عند المدخل تأخذني بجاذبيتها أشدّ ما يكون الأخذ وتفتح مسام النفس لاستقبال ومداخلة هذا الأفق الشعري الجديد الذي يحفل به هذا الديوان (وحشة الروح).

إنَّها رسالة نثرية بقلم مثقف متمكّن من لغته تجري البلاغة والإحاطة في مفاصل حروفه ومفرداته.

طابت لي المتابعة ونهلت منها ومعها نبعاً لا أعذب ولا أطيب طالما التعت إلى مثله في عطاء الأحياء المعاصرين فعزَّني. هو ذا يلخص في إيجاز وأسلوب صادق مشرق رحلته مع دواوين باشراحيل الثمانية (أكرم بهنَّ

شقيقات أربعاً جميلات (قناديل الريح) (بوح النسايم) (سيوف الصحراء) (أقمار مكة). وفدن علي عذارى من أمّ القرى يتهادين في وشاح رقيق من الطبع أنيق. يعرضن ما لديهن من رونق وجاذبية ومن روعة وإبداع ولم أكن في حاجة إلى إغرائهن أو إلى معرفة المزيد عن مفاتنهن فقد سبق لي أن فتنت في زمنٍ مضى بأخواتٍ لهن (مُعذبتي) (الهوى قدري) (الخوف) (النبع الظامي) وما يزال لهن في قلبي حتى اليوم أثر مرقون من هوى وفتون) آهـ. لقطة أخرى لم استطع مبارحتها حتى أثبتها هنا: (كيف استطاع أن ينجب كل هذه الخرائد مع ما يتقلد من عديد المناصب وما يقوم به من إسهام وتسيير في كثير من المشاريع. أم إنَّ لحظة الشاعر تعدل سنين متى ما استحضر الحدث وامتطى الإلهام) لقطة ثالثة أعجبني فيها امتزاج الوطنية بالقومية والجهاد بالصوفية واستعراض جامع موجز لإنجازات الجماعة الأولى في صدر الإسلام: (رأيته وهو يمتطي فرس الوطنية ويمتشق سيف القومية ويصول مع الأحرار في كل البلاد العربية والإسلامية يستكشف الأدواء والعلل ويستنهض الهمم

ويذكر بالأمجاد ويدعو إلى التحكم في وسائل العصر لمواكبة التطور العالمي المذهل كما رأيته متجلبباً بثياب الزهد والتّقى والورع شأن الدعاة في صدر الإسلام. أولئك الأفذاذ الذين انطلقوا من بكّة. زادُهم الإيمان وخيلهم الإرادة ينشرون رسالة الله في مشارق الأرض ومغاربها من أعتاب أوروبا إلى أسوار الصين).

ثم تأتي اللقطة الرابعة من هذه الرسالة الماتعة متناولةً بإلماح عواطف باشراحيل وتضحيته الوجدانية الغالية وفي آخرها يُثير كاتبها موضوعاً هاماً اختلف فيه الأقدمون ولا يزال المحدثون معنيين به هو حديث الموهبة والبيئة أيتهما أكثر فاعلية في العملية الإبداعية تاريخها ٢٨ رمضان ١٤٢٣ هـ/ ٢٣ نوفمبر ٢٠٠٢. اللقطة الرابعة من الرسالة: (ثم شاهدته عذرياً ملتفّاً بثوب العفاف مقتفياً أثر جميل وكثير وقد أرمضته الصبابة ولوَّعهُ الهوى وأضناه الفراق وشفَّه الحنين:

يجوب فتون الحب يستلهم السَّنا
يسير فلا غرب يضير ولا شرق
وكلَّما قلَّبت صفحة أضاءت لي قناديل الريح ميداناً

آخر من ميادين الحياة المتنوعة اقتحمها الشاعر بقوة بعثت في نفسي الشك في آراء كثير من النقاد الذين قالوا بأنَّ البيئة لها أثر كبير في ما ينتج الأديب. ورجح عندي ميزان العبقرية في الفن والإبداع) ا هـ.

وكنت أتوقع كاتبها من أعلام مصر والشام فإذا بي أُفاجأ بأنه جزائري وأي جزائري؟ إنه رئيس الجمهورية الجزائرية الأستاذ المناضل عبد العزيز بوتفليقة ولله كم ريَّحتني هذه المفاجأة وأسعدتني لأكثر من سبب وبأكثر من بشارة. إنَّها شهادة لجهود جمعية علماء الجزائر التي أنشئت في ثلاثينات القرن العشرين وكان على رأسها المجتهد المجاهد عبد الحميد بن باديس ونائبه العظيم البشير الإبراهيمي وثلّة كريمة مباركة من علماء الجزائر وأمكن لكتاتيبهم تعليم العربية والقرآن في كل مدن الجزائر وأريافها. وترحَّمت على فقيد العروبة المجاهد البطل الرئيس هواري بومدين الذي أصرَّ على الاحتفاظ ببوتفليقة وزيراً للخارجية رغم اعتراضات رئيس الجمهورية أحمد بن بلاّ. وكان الانقلاب تنفيذاً لذلك الإصرار وحمدت المولى سبحانه أن جعل الزمن علاجاً لطفولة الشعارات وانحراف

الأيديولوجيات فصارت القومية رديفاً للإسلام وليست عدوّاً له ووددت لو أنَّ مصلح الجزائر الأستاذ مالك بن نبي معنا يتابع فقرات هذه الرسالة وقد جسَّدت تعريفه الكلي والجزئي لمفهوم مفردة (ثقافة) وحقاً فإنَّ مثقفاً بهذا الوسع وهذا العمق يقوم على رأس إدارة دولة بحجم الجزائر إنساناً ومكاناً هو في الحقيقة انتصار للعروبة والإسلام نسأل المولى سبحانه صاحب الحول والطول أن يعمِّم انموذجه في كل الساحة الإسلامية.

بقي أن نتوقف قليلاً أمام ظاهرتي الموهبة والبيئة أيتهما أفعل في العمل الإبداعي؟

ونذهب إلى أنَّ كلتيهما نتاج مكاني يدخل بحسب مدلول (موهبة) تحت مضمون الخصيصة أو الحظ أو القدر. وكل هذه تشمل نثريات هذا الكون وكائناته تعميماً لقانون الاختلاف والتنوع. أو ما قال المتنبي:

هو المجد حتى تفضل العين أختها
وحتى يكون اليوم لليوم سيّدا

وفي القرآن ﴿وفي الأرض قطع متجاورات تسقى

من ماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾.

والمواهب أو الخصوصيات أو الحظوظ قدر سابق نشهده في الطبيعة فصولاً ومواسم. وفي عالمي النبات والطير مناظر ومثامر من أجل ذلك قالوا:

إنَّ المواهب لا فضلٌ لصاحبها
كالصوت للطير أو كالنشر للزهر

والإنسان الموهوب هو ابن البيئة التي هي حيّز مكاني ولا تستوي المواهب فمنها المغموس تأثراً ببيئته والمحدود التأثير بحراكها فهو ما يمكننا أن نسمّيه (ذو موهبة مؤستكة) وعن ذلك قالوا:

بلد الحراثة لو أتاها جرول
أعني الحطيئة لاغتدى حرّاثا
أبياتها من أي بابٍ جئتها
ودخلتها لرأيتها أجداثا
تصدى بها الأفكار بعد صقالها
وتردُّ ذكران العقول إناثا

وهناك صاحب الموهبة المُدتمكة الذي يهزُّ ما حوله على دوران الأعوام والقرون وذلك ما أحسَّه المتنبي مثلاً

في تقييمه لفاعلية شعره عبر العصور:

إنَّ هـذا الـشـعـر فـي الـشـعـر مَـلَـكْ
سـار فـهـو الـشـمـس والـدنـيا فـلـك

وما كان لامرىء القيس أن يقول في فرسه ما قال لـولا أنَّ الـفـرس أجـاد الـعـدو وأجـاد فـارسـه الالـتـقـاط والتصوير:

وقـد اغـتـدي والـطـيـر فـي وكـنـاتـهـا
بـمـنـجـردٍ قـيـد الأوابـد هـيـكـل

وأمدَّته بيئته الصحراوية بجماليات كائناتها فأتاحت له أن يقول في رخاء ويسر:

لـه أيـطـلا ظـبـي وسـاقـا نـعـامـة
وإرخـاء سـرحـانٍ وتـقـريـب تـتـفـل

وهي التي سمحت لابن الصحراء أن يقول عن ناقته وقد ذبحها إكراماً لضيفه واصفاً فراهتها وضخامتها وتعلق راعيها بها:

زيَّـافـة بـنـت زيَّـافٍ مـذكَّـرةٌ
لَّما نـعـوهـا لـراعـي سـرحـنـا انـتـحـبـا

أمـطـيـت جـازرنـا أعـلى سـنـاسـنـهـا
فـخـلـت جـازرنـا مـن فـوقـهـا قـتـبـا

ومثلهما ذلك الذي قال عن الأرقم ما لو اجتمع له مبدعون أكاديميون لما جاءوا بقريب منه:

تـراه بـأجـواز الـهـشـيـم كـأنّـمـا
عـلى مـتـنـه أخـلاق بُـردٍ مـفـوّفِ
كـأنَّ بـضـاحـي جـلـده وسـراتـه
ومجـمـع ليتـيـه تهـاويـل زخـرف
كـأنَّ مـثـنّـى نـسـعـة تحـت حـلـقـه
بـمـا قـد طـوى مـن جـلـده المتـغـضـرف

وذلك الذي قال تصويراً لمشهد البرق وانثيال الغيث بما يُشعرك أنه نزيف روحي يمتحه من أعماق وجدانه:

أرقـتُ وطـال الـليل لـلـبـارق الـومـض
حـبـيـاً سـرى مجـتـاب أرضٍ إلى أرض
نـشـاوى مـن الإدلاج كـدريّ مـزنـةٍ
يـقـضّـي بـجدب الأرض مـا لم يـكـد يـقـضـي
تحـنُّ بـأجـواز الـفـلا قـطـراتـه
كـمـا حـنَّ نـيبٌ بـعـضُـهـنَّ إلى بـعـض

كـأنَّ الـشـمـاريـخ الـعُـلى مـن صـبـيـره
شـمـاريـخ مـن لـبـنـان بـالـطـول والـعـرض

ويكون لهذه الرسالة الجزائرية الفذة وقعها في نفسية دكتورنا باشراحيل. ويأتي الجواب قصيدة تزيد عن خمسين بيتاً مفعمة بمشاعر العرفان وصهير الأحزان اكتفينا منها بثلاثين بيتاً التالية:

صـوت الجـزائـر حـاكـى صـوت راعـيـهـا
أصـداء أهـلي وهـذي أمَّـتـي فـيـهـا
هـذا الأريـج وجـنَّـات مـنـضَّـرةٌ
سـحـر الجـمـال مُـثـيـر فـي تـثـنـيـهـا
صـوت الـبـلابـل أنـفـاسٌ مـنـغـمـةٌ
عـلى غـصـون تـدانـت مـن مجـانـيـهـا
خـضـراء يـا مـوطـن الأحـبـاب مـتـرفـةً
بـكـل نـبـتـةِ غـرس طـاب سـاقـيـهـا
عـودي شـمـوس الـرؤى بـالخـيـر وارفـة
وليصـدح الحـب فـي الأنـفـاس يـشـجـيـهـا
ثـرى الجـزائـر هـذا الـرمـل مـن وطـنـي
أشـتـمُّـه نـسـمـاتٍ فـي روابـيـهـا

أرض العروبة والإسلام من قدم
منذ الفتوح وتاج النصر يُعليها
سنا الجزائر أقمارٌ محلِّقةٌ
تضيء رغم أعاديها وشانيها
نضالهم ما خَبوا يوماً وقد خلبوا
الدنيا وشقوا دروباً عزَّ ماشيها
لم يرهبوا الموت أو يوهي عزائمهم
هول السلاح وقد صدَّت أعاديها
أهلوك يا بلد المليون قد رفعوا
رأس العروبة مُذْ جدَّت مساعيها
يا من أثرت بي النَّجوى تنهنهها
تلك الحقول وقد أجلستني فيها
وفدت عندك طوافا على أملٍ
أرود فكرك فافترَّ المدى تيها
لقد وجدتُك يا (عبد العزيز) سناً
أضاء في ظلمات الأرض داجيها
وقد رأيتك إنساناً تتيه به
شمس الرئاسة في أبهى تجلِّيها

خـلائـق فـيـك تـنـبـي عـن ذخـائـرهـا
وعـلـمـك الـشـرّ أنهـار تـسـاقـيـهـا
قـد عـاصـرتـه الـليالي فـي شـبـيـبـتـه
فـاسـتـخـلـص الـرُّشـد فـي أقـسـى ثـوانـيـهـا
عـروبـة فـيـه لا تخـفـى مـلامحـهـا
وفـطـنـة مـن هـبـات الـغـيـب يُـبـديـهـا
يـا قـائـداً أمـة لـلـمـجـد ظـامـئـةً
يـكـبّـل الجـهـل والـفـوضـى أيـاديـهـا
هـذي الـعـروبـة والأدواء تـصـرعُـهـا
عـزَّ الـشـفـاء فـقـل لي مـن يـداويـهـا؟
يـا ألـف مـليون عـقـلٍ كـم يـؤرّقـنـا
إنَّ الـعـروبـة نـامـت عـن دواهـيـهـا
رُحـنـا نـكـمِّـم أفـواهـاً ونـسـكـتـهـا
عـن الحـقـائـق لا تُـبـدي خـوافـيـهـا
والـنـابـهـون تـنـاءوا عـن مـقـادرهـم
والـصـادقـون تـواروا عـن مخـازيـهـا
تـرى المصـائـر خـجـلى مـن مـصـائـرنـا
تـلـوذ بـالـصـمـت عـلَّ الـصـمـت يُـنـجـيـهـا

والخوف أطبق كالديجور في غدنا
كأنَّ أعمارنا بالخوف نحميها

كنَّا نراقص أحلام الهوى ولهاً
وما حذرنا الأفاعي في تلوِّيها

ها نحن يا سيدي شعبٌ بلا حلمٍ
ننال من غضبة الأيام تسفيها

يا أيُّها الفذّ يا عبد العزيز أعدْ
إلى الجزائر حبَّاً في مغانيها

وانظم من الحبّ أجيالاً يؤلفها
صدق الإخاء وطيب الود يصفيها

بوركت رفعة آمالٍ لأمَّتنا
وبوركت أمَّة ترقى براعيها

ونراه في قصيدته (ملام) وقد تعقَّدت لغته وصار الرمز لباسها الأثير ص ٢٥:

كيف يا عاذلي لماذا تلوم؟
قدرٌ قادر وجرحٌ أليم

كنت أسقي ونبتة الغدر تنمو
ولبعض الغروس طلع وخيم

ما توقعت بعد أنداء قلبي
أن أرى بومة الجحود تحوم

قد رأينا البدور في الأرض تهمي
وأضاءت لناظريها الغيوم

فإذا بالربيع يذوي سريعاً
وإذا الصيف مثخنٌ مكلومُ

هان في نفسه الوفاء فماذا
ترتجى في الضلال إلا السُّموم؟

وقصيدته بعنوان (عقل الذئب والديك) . الألم جراء خيانة الكثير ممن تثق بهم وتحسن إليهم وعادة ما يكونون عِلية. على حين تجد بين غمار الناس ذوي معدن أصيل ونفس كريمة راعية للصنيعة وإلى ذلك يشير بيته:

بحثت في الدهر عن شخص أصدقه
فما وجدت سوى بعض الصعاليك

وهو عصارة تجربته الخاصة لها ما يؤكدها في تجارب الآخرين قرأت للرئيس البوسني علي عزت بيجوفتش في كتابه (هروبي إلى الحرية) هذه التجربة ص ٢٠:

(عندما أملأ دفتراً لم أكن أضعه في خزانتي وإنَّما كنت أودعه لدى أحد زملائي السجناء والذي كان مداناً بسبب جريمة قتل. وهكذا يمكن مصادرة دفتر واحد فقط ذلك الذي أعمل به. أي بمعنى آخر فإنَّ إدارة السجن كانت تقوم بين فنية وأخرى بتفتيش خزائننا باحثة عن (أشياء خطيرة).

وكانت الأشياء الخطرة السلاح والمخطوطات. وكانوا يقومون بالتفتيش بالتساوي إلا إننا نحن أو بعضنا كنا متساوين كثيراً وكانوا يفتشون خزانة صديقي القاتل - والفلاح بالأصل بشكل عابر وقبل نهاية السجن حمل صديق آخر لي في السجن (وهو محكوم بالتزييف) العشرات من هذه الملاحظات في علبة شطرنج إلى الخارج وعندما سلَّم الأمانة إلى أولادي رفض أن يتسلّم مكافأة نقدية. الناس الذين نسميهم مجرمين يكون لهم أحياناً شعبية وجاذبية معينة في محيطهم وسبب ذلك أنهم يعرفون عادة الصداقة ومستعدون للمخاطرة، وبعض من نسميهم الناس الطيبين يكونون غالباً مجردين من هذه الفضائل) اهـ.

ويدعو داعي السماء إمام الحرم المكي عمر بن محمد السبيل فيلبّيه ويشيّعه باشراحيل بهذه الأنفاس المحرورة (ص ٣٥):

والخـــيـــر أصـــدق مـــن بـــكـــى
حـــزنـــاً وأول مـــن حـــضـــر
كـــبـــريـــق حـــبَّـــات الـــنـــدى
أشـــرقـــت فـــي عـــين الـــقـــمـــر
دمـــع الـــنـــســـائـــم لم يـــزلْ
يـــنـــســـاب مـــن مُـــقـــل الـــسَّـــحـــر
وســـراجـــك الـــضـــاوي يـــشـــع
بـــمـــا حـــفـــظـــت مـــن الـــسُّـــور
ولأنـــت بـــالـــخُـــلـــق الـــذي
أوصـــى بـــه خـــيـــر الـــبـــشـــر
مـــتـــوشّـــحـــاً بـــالـــحـــق مـــا
بـــين الـــبـــصـــائـــر والـــبـــصـــر
الـــلـــه أكـــبـــر يـــا عُـــمـــر
فـــي الجـــدب يـــفـــتـــقـــد المطـــر
يـــا طـــيـــب قـــلـــبٍ قـــد ذوى
وربـــيـــع عـــمـــر يحـــتـــضـــر

والقلوب هي خلاصة هذا التكوين البشري مركز الأفراح وملتقى الأتراح ومصادر الفرح والترح متنوعة... ولكل شجن لحن يتساوق معه ويؤدّي عنه. هو هذا إبراهيم ناجي يخاطب قلبه:

أيُّها الساهر تغفو
تذكر العهد وتصحو
وإذا ما التام جرحُ
جدَّ بالتذكار جرح
فتعلَّم كيف تنسى
وتعلم كيف تمحو

والأخطل الصغير يخاطب قلبه:

أيها النازف المعذَّبُ يا قلبي
نزحتَ الدموع من مقلتيّا
أفحتمٌ عليَّ إرسال دمعٍ
كلما لاحَ بارقٌ من محيّا
أأنا العاشق الوحيد فتلقي
تبعات الهوى على كتفيّا

غير أنَّ بدوي الجبل محمد سليمان الأحمد بين شعراء

الأشجان والأحزان هو الذي دلَّل الهموم وعطَّر الجراح في مثل خطابه لأبي حسَّان شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية:

جراحٌ في سريرتك اطمأنَّت
لقد أكرمتَ بالصبر الجراحا

كأنَّ الهمَّ ضيفك فهو يلقي
على القسمات بشراً وارتياحا

وقبلك ما رأت عيني هموماً
مُدلَّلة وأحزاناً مِلاحا

وقد ترِدُ الهمومُ على كريمٍ
فترجع من صباحته صِباحا

هو المناوح المِراصف لشاعرنا أبي صالح وهو يتأوه من جراح في الأعماق (ص ٤١):

أيُّها النازف الذي صار جُرحي
زدت جرحاً وكلُّ آه بجرحِ

قد رأتني الجراحُ أحملُ قلباً
كلما ازداد طعنهُ ازداد صفحي

فـكـأنَّ الجـراح تـفـرح عـنـدي
وكـأنِّي حـبـيـبـهـا وهـي ربـحـي
يـا ريـاح الـسـمـوم أشـعـلـتِ نـاراً
فـاتـركـي الـنـار تـسـتـلـذ بـلـفـحـي
أنـتِ ضـيـفُ الـكـرام بـين الحـنـايـا
ولـكِ الـعـمـرُ كـلُّـه رغـم بـرحـي
ولـك الـعـذرُ حـيـث لا عـذر أبـدي
ولـضـيـفـي أجـيـزُ قـتـلي وذبـحـي
اسـكـنـي يـا جـراح قـلـب سـهـادي
وإذ شـئـت بـين ليلي وصـبـحـي

كِنديون ثلاثة يبتعثهم ملء واعيتنا نص باشراحيل الشاكي. والحق أنَّها شكوى إنسانية عامة كأنَّما جُبل عليها الإنسان فقبل أن يقول الكندي امرؤ القيس وبعد أن قال ظلَّ الحال هو هو:

إذا قـلـتُ هـذا صـاحـبٌ قـد رضـيـتُـه
وقـرَّت بـه الـعـينان بُـدِّلـت آخـرا
كـذلـك شـأني لا أُصـاحـب واحـداً
مـن الـنـاس إلا خـانـنـي وتـغـيَّـرا

مثله شكا الكندي المقنع أولاد عمومته:

فـــإنَّ الـــذي بـــينـــي وبـــين بـــنـــي أبي
وبـــين بـــنـــي عـــمـــي لمخـــتـــلـــفٌ جـــدًا

والأبيات معروفة.

كذلك قال كنديٌّ ثالث هو المتنبّي:

صـحـب الـنـاس قـبـلـنـا ذات الـزمـان
وعـــنـــاهـــمْ مـــن أمـــره عـــنـــانـــا
كـــلـــمـــا أنـــبـــت الـــزمـــانُ قـــنـــاةً
ركَّـــب المرء لـــلـــقـــنـــاة ســـنـــانـــا

إلى آخر مصريته الباكية. ويقول أبو صالح في باقته المجمّرة أنفاساً عطرية فواحة بشمائله الكريمة وأخلاقه الندية العالية في بنيان شعري عامر رصين: ص ٤٣:

أرخْ خـافـقـي الموهـون مـن رجـفـة الحـزن
فـغـدر الـبـرايـا لم يُـشـح مـرةً عـنـي
حمـلـت إلى الأيـام روحـي وراحـتـي
وقـلـبـاً غـدا مـن شـدّة الـوجـد كـالـعـهـن

أدقُّ عـــلى الأبـــواب أبـــتـــاعُ بهـــجـــتـــي
بـغـمّـي ولـكـنْ لا أصـيـب سـوى الـغـبـن

أنـــادي عـــلى صـــوتي الـــذي بُـــحَّ صـــوتـــه
فـــتـــرجـــع أصـــداءُ المنـــاداة فـــي أُذني

فـلا الـروضـةُ الحـسـنـاءُ أغـرت أحـبَّـتـي
ولا الخـــافـــق الحـــاني ولا روعـــة المزن

قـرأتُ كـتـاب الـنُّـكـر والجـحـد والأسـى
فـمـا ازددتُ عـلـمـاً بـالجـحـود وبـالـضـنّ

وعـشـت أبـاري الـريـح فـي كـل عـاصـفٍ
طـبـائـع نـفـسٍ لا تـقـيـم عـلى الجُـبـن

ومـــا راعـــنـــي أنَّ الـــوداد مجـــانـــبـــي
وقـد كـنـت أسـقـيـه الـروائـع مـن فـنّـي

أثـيـرٌ فـمـن نـفـسـي نـداهـا وفـضـلـهـا
خـــلائـــق مـــيـــراث الجـــدود إلى الإبـــن

أتـألم نـفـســي والـزمـان يَـسـومُـهـا؟
وتمـضـي بـرغـم الـوجـد فـي سـرهـا المُضـنـي

وتـنـبـتـنـي حـسـاً جـديـداً كـأنَّـهـا
رأتْ طـيـبـتـي الجـذلاء وهـنـاً مـن الـوهـن

يُسالمها عمري البريىء فلا تني
تمانعني حظي لأغضي لها جفني

تطالبني بالثأر من كل ظالم
فتثأر نفسي بالنبالة والحسن

هو الدهر آمالٌ إلى غير منتهى
ولكنها في لحظة الجد لم تُغن

وأبحرتُ واليمُّ العميق يصدُّني
فمركبتي أوهى على الريح من غُصن

أتوقُ إلى عطر الرُّبوع فأنثني
وأشتمُّ أنفاس الكراهة والمنّ

وأقتاتُ من نفسي أكاليل زهرها
وأنثرها كالتِّبر في الأنس والجنّ

وألقى مواعيد المودَّات أخفقت
فأرثي لإنسان الخساسة والظنِّ

فما نظرتْ عيني كريماً سوى الذي
تعطَّر من بذل المكارم باليُمن

مقطوعته عن صغيرته (فرح) تأتينا بلغة ومشاعر وصور طرية طازجة ص ٦٧:

يستأذنُ الصباح من ضيائها

مصباح فرحتي المنير

أحبُّها كأنَّها طفولتي وغضبتي وثورتي

أحبّها كروضة الزهور

لا يشرق السَّنى إلا بها... فإنَّها الشموس

والأقمار والبدور

حبيبتي تقول... با... با إن مشيتُ حولها

تريد أن أحملها تريد أن تطير

صغيرتي كقطعة الألماس

في بريقها المثير

تبارك الخلاَّق من له الكمال والجمال وحده

بوركت يا ابنتي بصوتك الأثير

يبدو أنَّ المعاناة المتواصلة من مرارات الشأن الخاص وهو يتلقى من يوم ليوم غدر الأصدقاء المزعومين ومرارات الشأن العام المترع بكل ما يسوء ويؤلم لم يبق لقلبٍ كريم يهشُّ للحياة الراقية النقية إلا باب الطبيعة وهو

هنا رغم الجدب والسموم إلا أنه عامر بأشذاء البطولة وموجات الإشراق الروحي والتسامي الأخلاقي. فهو على حد قول أبي ريشة:

ربٌ موّجها إذا شئت قفاراً ورمالا
نحن نهواها على الجدب إذا أعطت رجالا

إلا باب الطفولة وهي النقاء المطلق والبراءة البهيجة وصاحبنا هنا هو شاعرها الأول في هذا المحيط يتندَّى بها ويتنامى معها. هوذا يستقبل حفيدته (رند) فيوسعها احتفاءً وثناءً وينشق منها عبير نفسه منساباً من أبيها الذي هو ابنه الأول ص ٧٨:

أتيتِ بالصفو بالأفراح يا رندُ
يا صبحُ يا بدرُ يا أنسامُ يا وردُ
قدومك العيد أحييتنا مباهجُه
ومن رقيق المنى قد أورق المهد
حفيدتي نغمة الأصوات أعرفُها
لكنَّ صوتك يشجيني متى يشدو؟
جميلةٌ أنتِ ما أحلاك في نظري
بوركتِ يا طفلةً في وجهها السعد

يحميك ربُّ الملا من كل مبتذلِ
ويصطفيك الشذى والطلع والشَّهد
أتيتِ بالنسم الولهاء باسمةً
فعدتِ بي لربيعٍ شفَّه الودُّ
رأيت يا طفلتي دهراً يُقلِّبنا
على الجراح التي في القلب تشتدُّ
والأمنياتُ شموعٌ راح يطفئها
ليلُ الزمان الذي ما انفكَّ يسوَدُّ
فلتهنئي طفلتي بين السنا فرحاً
ولتنهلي الخير ممَّا ينبت الورد
يختال فيك ندى أزهار رانيتي
وليدتي البكر والأمال والحمدُ
سلمت طول المدى طيراً على فنن
فغرِّدي وامرحي يهنا بك الجد
إني أعيذك بالرحمن مبتهلاً
أن لا يضيفك إلا الحب يا رند

وهكذا بين نفحات جحيم منتشر سلوكيات وتبرمات واقع لم يبق إلا أنسام الطفولة وقد مررنا ببعضها ونفحات ندية تتراءى في موعد مع حبيب (الموعد) ص ١٠١ :

فلتكن أنت النشيدْ

ولتكن كالعيد في عين المعنَّى

يا سماءً تعتلي فوق سماءْ

أنت إغراءٌ إلى السبق البعيد

أول الخوف الظلام المنتشر

حين نمضي وعلينا من سنا نور القمرْ

هالة من عبق التاريخ والماضي المجيدْ

فاقرئي كلَّ التعاويذ وسيري

نحو عمري ومصيري

واسكني بين ظلال ونسيم

كلُّ خلقٍ آيلٌ نحو الهرمْ

لا تخافي من تواري العمر في جوف السديم

بل من النار التي يقذفها

قلب الجحيم

حينما يترعنا كأس السكوتْ

حينما الدهر يموت

فتعالي خافقاً لا يستريح

أمهلي العمر الجريح

وتعالي نقبس النور رحيقاً وفتون

أو تعالي فرحةً بين العيون

نسترد العمر بشرى وهدى

فهنا يولد ما ضاع سدى

وهنا الدهر ابتدا

وهنا الخير همى

فانظري صدق الرؤى

إنَّما الماضي هو الحاضر

والميلاد للأيام

والرَّحم المدى

ليتنا صرنا غدا

ومن نصوصه الكاشفة لكثير من المحاذير والمواجع هذا الذي نقرأ فيه آهات الصدور والحناجر المكتومة وليست زغردات الميكروفونات والدفاتر الموهومة وهذا النص وأمثاله قليل نادر في إبداعنا العربي ص ١٥٨ :

لأنّي قد هجرت الشعر

ووجه غلالة الأحزان

يعبث في ميادين

أتعذر إن هجرت الشعر

أبكيه ويبكيني

أتعذرني دمي المسفوح

ينزف من شراييني

أتطلب يقظة الإحساس

في جيم وفي سين

وفي أرزائنا الكبرى

وفيها ألف ملعون

فدعني في خيوط الشمس

أستحيي رياحيني..

وعن النخلة والوطن يقول ص ١٦٣:

سقيت نخلك من نهر الأغاريد
وعدتُ أسقيك من عيدٍ إلى عيد

سنى حجازك ضوء القلب يا وطني
وليل نجدك كحل الأعين السود

في غمرة الصيف أورادي أنمِّقُها
وفي مرابعها قد طابَ مولودي

يا موطن الحب أيَّامي قد انبهرتْ
وأورقت نجمةٌ في صفحة البيد

أرضي هي الحبُّ لا الإرهابُ ما برحتْ
ملاذَ كل رفيع القدر محمود

وجدته والندى وعدٌ على سفر
محملاً بعطور الورد والعود

يـعـطـي الـعـطـايـا وليل الـغـدر محـتـشـد

بـخـبـث مـرتـزقٍ أو حـقـد مـنـكـود

وأجدُ في مقطوعته «من يصطاد البحر» تحوّلاً شعرياً أخَّاذاً ما أذكر أنَّي مررت بمثله في كل الشعاب المرجانية الباشراحيلية. إنَّه في رأيي نصٌ يؤكد القدرة العالية لشاعرنا على التأثر والتأثير وبوتيرة عالية ص ١٧١:

حين تنام عيون الظلّ

ويسترخي القتله

يبقى لرماد النار دخانْ

ولهمس الوقدِ صله

سنعدُّ إلى العشرة

نبدأ بنيوب الغدر المنتشرة

بالجوع، الذلِّ، الداء، السلب

ونختم بالهتك، الفقر، الخوف، الموت

وبالريح القذرة

وبالآلام الثمله

تترشَّف قهر الليل شفاه

وقلوبٌ تعزف من أنَّات الآه

وترقص أفئدةُ الخوف على الأقدام الوجله

حتَّام يفتِّشُ هذا الوجد المتعثِّر

عن ضوءٍ تاه

أوَّاه آهٍ. أوّاه. آه

عبثاً يقرع هذا الصوت صداه

يفترش الصيَّاد شباك أمانيه

ليصطاد البحر

فلا يبصرُ خلف شباك الوهم سواه

والحكم في تاريخ هذه الأمة العربية هو محنتها الأولى والكبرى منذ أن قال الأحنف بن قيس في موقف معاوية:

«أمير المؤمنين هذا ـ مشيراً إلى معاوية ـ فإن مات فهذا ـ مشيراً إلى يزيد ـ فمن أبى فهذا ـ مشيراً إلى السيف» بذلك الاختزال المتجاوز وئدت أدبيات الحكم الإسلامي من بيعةٍ حرّة وشورى ملزمة وحسبة دائمة وفتح باب الاستبداد بكل مصاريعه. واستقرَّت أنموذجيةُ الدولة في الحجَّاج وزياد وأمثالهما. وتوالتْ القرون وأطفأ الاستبداد المستديم شعلة الحرية والإحساس حتى صارت مقولة ابن الوردي هي الحكمة الذهبية في تعامل المحكومين مع الحكام «لا تعاند من إذا قال فعل» وهكذا غاب الحكم إلا شكليات وغابت العروبة التي اهترأت بفاعلية الاستبداد المستديم الجاثم. وجاد المماليك وصرخ شاعر القومية العربية صرخةً لا ثأراً للعدل الأسير الكسير وإنَّما احتجاجاً لغياب عنصره العربي عن سُدّة الحكم وقيام عنصر آخر بصولجانها:

بكلّ أرضٍ وطأتها عربٌ
ترعى بعُبْدٍ كأنَّها غنمُ
وإنما الناس بالملوك ولا
يصلح عُرب ملوكها عجم

وتلوَّنت فسيفساء الحكم بشتى الألوان والألسن فمن كرديّ إلى تركي إلى بربري إلى نوبي. وطالتْ طائلة المماليك حتى اجتثَّهم ألبانيٌ كما اجتثَّ أولاده وأحفاده مدفع أوروبي وبارجة افرنجية وبعد حين عاد الحكم إلى العرب باسم الوطن وجاءوا إلى الحكم لا من باب القبيلة فقط كما اعتادوا وكما قال ابن خلدون وإنما أيضاً على ظهر دبابة يقودها ابن القبيلة المعاصر ـ الجيش ـ وقام هذا الحكم الجبروتي تأتي برجاله فوهة مدفعٍ ثم تذهب بهم وتأتي بآخرين وندر في تاريخ الحكم القومي والوطني العربي المعاصر أن ضرب مثلاً حقيقياً لسيادة الجمهور ومحكومية الفرد لا حاكميته. ندر من يستقيل في الحكم العربي المعاصر غير ثلاثة ضربوا المثل وصدقوا في التطبيق هم: الرئيس اليمني عبد الرحمن الإرياني والرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد والرئيس السوداني محمد عبد الرحمن سوار الذهب. وعن هذا يقول شاعرنا باشراحيل ص ١٧٣:

كم سعتْ نحوك دنيا لم تكنْ

تسعى لها

فتعذَّرت برُشْدِ الواثق المحتسب

يا (سوار الذَّهبِ)

مشعلٌ فيك سما

وزها النورُ

وفي الأحداق بعض العَتَب

كنت والآمال تحبو في مسارات المدى

ورفيف الحلم في عينيك

طيفٌ يختبي

يا حكيم العصر

أبصرتَ الأسى منطلقاً

يقرع الأبواب كالوحش

رمى بالرّهبِ

إنَّما الحكم ضميرٌ صادقٌ في حاكمٍ

يجمع الشعب على القسطاس

والحقِّ الأبي

أنت آثرت الرِّضا

حيث السنى مؤتلقٌ

وملكت الحبَّ

في قلب فتاةٍ وصبي

يا نبيل النفس ما أهناك

في ثوب الرِّضا

طبعك السامي

مضى يحتلُّ عالي الرُّتب

وبعد: فمع إصفاقنا على ما قالوه من أنَّ العمل الإبداعي الناجح هو ذلك الذي تكتمل له اللغة الأنيقة والتجربة الشعورية الحيَّة والمقدرة التصويرية البارعة فإنَّنا نضيف إلى ذلك إضافةً نابعةً منه ومضيفة إليه تلكم هي التنويه بقيمة الصدق في هذه الحياة كمنبع للجمال الكونيّ العام ومصدر للعافية والنماء.

إننا لنرى ما أُصيبت به البشرية من عاهات أخلاقية وتشوّه سلوكي ليس له من سبب غير غياب الصدق عن كل هذه الحياة وجزئياتها فكان هذا المتاه الذي تعانيه البشرية داءً مستديما في داخل حناياها وسقاماً في ضمائرها وتخبُّطاً في تصوراتها وأخلاقياتها.

شيءٌ آخر تحرص هذه الأسطر على شد الأنظار إليه وإيلائه ما ينبغي له من اهتمام. ذلكم هو تجلية الفارق بين القيم والمعارف. إذْ ما أكثر ما شاع في هذا الاجتماع الإنساني من معارف معنوية ومادية تطبيقية وتنظيرية ولكنَّها لا تفيد صاحبها إلا كسبب معيشي لا أكثر. على حين تتفرّد القيم بأنها القوة الدافعة والرافعة للإنسان فرداً وجماعة. إنَّ المعارف أجسامٌ هلامية. وإنَّ القيم هي العظام التي تحمل الجسم وتتحرَّك به وتكتب فصول الأعوام ومشاوير الأجيال. وتوضيحاً للفارق بين القيمة والمعرفة ضرب القرآن مثله المُعبِّر: ﴿مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾. ومثله الآخر المفزع الذي ضربه للعارف المعاكس سلوكياً لما يحمله من معرفةٍ وقيم: ﴿كالكلب إن تحملْ عليه يلهث أو تتركه

يلهث﴾. وأحسب ما في هذا الكون من جمال يتذوَّقه الإنسان ويتنامى معه ويضيف إليه هو بركة من بركات الصدق المنسجم باطناً وظاهراً مع الكون وكائناته ولكم تسامى المنظر البسيط بسذاجته الصادقة فصار جمالاً تألفه النفوس وتصبو إليه وتحنو عليه. لا لشيءٍ إلا لانطباق المنظر والمخبر والتقاء السرّ والعلن. ولذلك قال قائلهم:

قبُحت مناظرهم وحين خبرتُهم
حسنت مناظرُهم بحُسن المخبر

أو ما قال المتنبِّي:

حُسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفي البداوة حسنٌ غير مجلوب

وقرأتُ لفقيد الأدب العربي أمين الريحاني وهو يقصُّ شيئاً من خبره مع الركب المرافق له من رجال الملك عبد العزيز في طريقه إلى الكويت وفيهم من يدعونه مسفراً طباخ الركب فإنَّه على دمامة منظره وابتذال ثيابه فإنَّ صدقه الذي لا يبارحه جعله حبيباً إلى قلب الريحاني ابن ناطحات السحاب في أمريكا.

وعن قيمة الصدق في العمل الأدبي كسباً للقلوب وتأثيراً في سامعيه قولهم:

فـــإنَّ أجمـــل بـــيتٍ أنـــت قـــالـــه
بـــيت يُـــقـــال إذا أنـــشـــدتـــه صـــدقـــا

وبمقدار ما يكتب للبيت من بلاغة صادقة يكون حظه إلى الخلود:

إني إذا قـــلـــتُ بـــيتـــاً مـــات قـــائـــلـــه
ومـــن يـــقـــال لـــه والـــبـــيـــت لم يـــمـــتِ

وحين يكتمل الصدق البليغ وتكتمل له المزية العقلية بالإيجاز الذي يتساوى لفظه ومعناه ويروق عقلاً وحقيقةً حياتية تكون له قيمته الكشفية الأخَّاذة من مثل:

ســـهـــرت أعـــينٌ ونـــامـــت عـــيـــون
فـــي أمـــورٍ تـــكـــون أو لا تـــكـــون
إنَّ ربّـــاً كـــفـــاك بـــالأمـــسِ مـــا كـــان
ســـيـــكـــفـــيـــك فـــي غـــدٍ مـــا يـــكـــون

ومن مثل قول أبي ريشة:

لستَ تستطيع أن تكون إلهاً
فإذا استطعتَ فلتكنْ إنساناً

ويبلغ العمل الأدبي المبطن بالصدق والمعمور بحقائق الحياة ذروته حين يتوشح مئزر الإدهاش المتفجّر بكهرباء الإضاءة والجرأة. وللإدهاش صورة: منها ما هو إدهاش مضمون كقول تلك التي غاب عنها زوجها المجاهد وسمعها الفاروق في جولاته الليلية وهي تردد هذا البيت:

فوالله لولا الله تُخشى عواقبُه
لزلزل من هذا السرير جوانبه

ذلك أنَّها جهرت لنداء الغريزة وحق الفطرة فاستجاب لها الخليفة الراشد. ومن صوره: الإدهاش التصوّري من مثل قول الزبيري:

بعثت الصبابة يا بلبلُ
كأنَّك خالقها الأول

إذ يذعر أو يتذاعر الغافلون أو المتغافلون من مفردة (خالق) فيعدُّونها افتياتاً على الحق الأعلى سبحانه مع أنهم يقرأون في القرآن (أحسن الخالقين) و(خير الرازقين) إلا أنَّ خلقه ورزقه سبحانه هو الأصل الثابت الدائم وهو

بالنسبة لأعمال البشر حكايةً وتخلقاً بأخلاقه سبحانه.

وهناك الإدهاش التخيّلي الذي يتجاوز به صاحبه آماد الآخرين وقدراتهم تخيّلاً وتعبيراً ومن شعر الأقدمين قول ابن مقبل:

إذا متّ عن طبّ القوافي فلن ترى
لها تالياً بعدي أطبَّ وأشعرا
وأكثر بيتاً مارداً ضُربت له
حزون متون الشعر حتى توعَّرا
أغرّ غريباً يمسح الناسُ وجهه
كما تمسح الأيدي الجواد المشهَّرا

وفي شعر المعاصرين قول نزار عن ازرقاق عيني حبيبته بما فات الماضي والآتي:

هذه بحارٌ كنتُ أجهلها
لا برَّ بعد اليوم يا سفني
معنا الرياحُ فقُلْ لأشرعتي
عُبّي المدى الزيتي واحتضني

ومن تجاربي مع الصدق في الكثير من الوقائع التي أعرفها من نفسي وأتّخذها قاعدة في حياتي هو أنني حين

ينغلق عليَّ موضوعي ويترامى دواره بي دون أن أقدر ولوجاً إليه وركوباً له وانطلاقاً فيه هو أنني أقدح شرارة الصدق في علاقتي بالموضوع والآفاق المتاحة دون إفراطٍ أو تفريط مردّداً قول المتنبّي كقاعدةٍ ذهبية:

أبلغ ما يُطلب النجاحُ به الطب
غُ وعند التعمّق الزَّلل

وإذا كانت الحياة وأهلوها الهالكون المهلكون تستقيم بقيمة الصدق فكيف لا تستقيم جزئية الإبداع به؟ وإذا كان ذلك كذلك فما حظُّ شعر باشراحيل من الصدق الشعوري والصدق الفني؟ والإجابة على هذا السؤال هي لُبّ اللباب في هذا التطواف. وسيتلقاها المتابع رشفات في هذا السياق.

ذلك أنَّ للتكوين الذاتي والوسط الاجتماعي مشاركتهما الحاسمة في منتج المواهب المبدعة والألوان والتوابل الخاصة المتميزة بها. فإذا كان مثلاً للعباس بن الأحنف أن يصون شعره من المدح والهجاء وكان لابن أبي ربيعة أن يقف شعره على حسناوات المدينتين المقدستين وكان لدعبل أن يُرسل شعره قذائف ملتهبة ضد العنجهية

في عصره. وكان للمعري أن يقف شعره في مناسج الفلسفة ومغازل اللُّغة فإنَّ كل أولئك كانوا يعبرون عن المتاح الاجتماعي الأنسب والاهتمام النفسي الأعذب لديهم خاصاً بذواتهم وبيئاتهم.

فإنَّ دكتورنا باشراحيل له خصائصه وخصوصياته التي يعرفها إقليمُه وقومه. ومن هنا وجب عليه أن يكون كلّ هذا العطاء الشعري المتنوّع الألوان والروائح والمواضيع. ومن ذا الذي يجهل ما بهذا الخليط العام من حساسيات وضغوط. أفلا يجدرُ بنا أن نهنئه على ما أمكن له من نجاح في هذه الحلبة الشعرية الواسعة والمتشاكسة أحياناً فخرج وقد أرضى كل ذوي الشأن والساحة. واحتفظ للمقدسات والقيم بمكانتها التي بذل وسعه مغالاة بها وإعلاءً من شأنها مع التزامه المعجمي القاموسي والخليلي والبلاغي. وسجَّل وثباتٍ يعرفها له من تابع عطاءه الشعري الفياض. كل هذا مع انشغاله بشأنه الخاص المترع بالمسؤوليات وازدحام الواجبات. ولقد كان لي مع شعره موقفان: أخلاقي - وجداني.

أمَّا الأخلاقي فلأنِّي والحمد لله أعرفُ الناس بنفسي

رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه ـ فإنَّني وأنا الكفيف الملازم في زوايا بيتي المتواري في أعماق الريف الجنوبي الغربي من اليمن. ما حصلت على شهادةٍ ولا حظيتُ بشهادة أكاديمية عليا ـ فكيف لي أن أضع نفسي موضع الناقد لشاعر دكتور ما من ديوان من دواوينه إلا وتلقاه جهبذٌ وأثنى عليه نطاسيٌّ أفما يكفيني منه أن أسعد بمصاحبته وأتمتع بالتنقل في رياضه التي أتاحها لي دكتورنا الشاعر رعاه الله؟؟

وأما موقفي الوجداني منه فإنَّه الانفتاح عليه بكل مسام واعيتي وفلاشات باصرتي. وأسجل استجلاءاتي في صدق واستبصار. ولقد كان أسلوبي معه ذات أسلوبي مع غيره الانفتاح المستجلي الودود صائناً مشاعري وانطباعاتي عن أيّ ملقٍ أو تزييف. إذْ ما أخسرَها من صفقة إن لم نصنْ دنيا الإبداع من كل ملوثات البيئة وملوثات المشاعر والأحاسيس. من أجل ذلك دخلت عالمه الشعري حريصاً على عفوية الالتقاء وبداهة التلقي فلم أقرأ مقدمة ديوان من دواوينه حتى لا أتأثر بانطباعات الآخرين.

كما حرصت ـ تحقيقاً لكل ذلك ـ على تسجيل

انطباعاتي الآنية مع النص والتعامل معها في استقلالية لا تلتفت إلى ما بعدها. وأنت ترى ذلك فيما كتبته عن ديوانه الثاني من انتقادٍ لصمته عن تفجرات الواقع المهولة. فلم أشأ أن أشطبها بعد أن وقفتُ على معطيات ديوانيه الثالث والرابع المكتظَّين بما صمت عنه في ديوانيه الأول والثاني. ولقد دخلتهما متحسِّساً ثم متلمِّساً حتى إذا أمضيت مع الثالث مشواراً غير قصير وجدتني أشعر بألفةٍ نحو شاعرنا وتعاطفاً مع مشاعره في مواضيعه. ومع ديوانه الرابع (الخوف). وأجدتُ الإصغاء لقصائد الشطر الأخير منه حتى رأيتني اعتنق الشاعر وأوسعه التئاماً واحتراماً متعجباً بكياسته البارعة في ترتيب ديوانه وتحاشي المحاذير والمعاذير بأسلوبٍ حكيم. وكذلك كان شأنه في دواوينه الأربعة تمام الثمانية.

ولقائلٍ ما أن يقول عن هذه الوفرة الشعرية لدى صاحبنا ومصاحبته للشعر لا تزيد عن ربع قرن.

ولكنَّ الأمر كما قال المتنبِّي: (لكل امرىءٍ من دهره ما تعوَّدا). فوفرته الشعرية قدرٌ من أقداره أملتها مكانته الاجتماعية واستوجبتها الشهرة البارزة التي لا بد وأن

تستجيب لدعوات الداعين الذين يرونه بدر أحفال ولسانها القوَّال. كما أنَّ التلقائية في إفضائه الشعري عند امتلاء عواطفه واحتفال مشاعره غير متعملٍ فيها أو محرج منها نظراً لسموّ مواضيعه بصورة عامة ممَّا يستدعي بالمتابعة ارتفاع نثرياته وإضماماته. كذلك هو ما أكَّدته المتابعة مزمار العفوية وشادي الفطرة غير ملتفتٍ إلى مدارس أجنبية لأنه ابن واقعه وصداح مكانه وزمانه تراه واضح الباطن والظاهر كهذا الأذان الذي تردّده الصوامع أصيلاً لهذا البيت العتيق. يسمعُه العربي الجاهلي والعربي في صدر الإسلام وابن العروبة اليوم فيفهمون منه ويتأثرون به غير ملتفت إلى كلاسيكية الرومان واليونان ولا رومانسية هوجو ولا رمزية بودلير ولا واقعية الاشتراكيين ولا بنيوية رولان بارت ولا تفكيكية جاك دريدا. ولقد رأيته أكثر تعلقاً في سائر بقاع الأرض بمكة المكرمة التي لها في حواسّه وأنفاسه أثر كريم بُعد الموضوع منها أو قرب. فلا عجب أن يكون في رأيي شاعر الحرم وهو وإن كان يُكثر في شعره من الجهارة الخطابية والتكرار المقصود وغير المقصود والتطويل والإكثار في كثير من الأحايين فعذره

في كل هذا تلمسه في البواعث المتنوعة التي أسلفنا الإشارة إليها هنا وفي تضاعيف ما مضى من الصفحات. ولكنَّه مع ذلك وقبله وبعده يتمتَّع بقدرة بالغة على التجدّد والتجديد كحين يتخفف من ضواغط واقعه ويصفو له الإفضاء بسجعات خاطره ورفرفات مشاعره. ترى ذلك واضحاً في شعره العائلي وقد أشرنا إلى الكثير منه في مواضيعه كما تراه في كثير من نصوص ديوانه التاسع (وحشة الروح) وتكون أكثر التصاقاً به وحميميةً معه وأنت تجيد قراءة نصوص رائعة من شعره الشعبي كما في ديوانه (بوح النسايم). من أجل ذلك كله رأيت أن أعقد وقفة خاصة لي في هذه الدراسة مع الصورة الشعرية في شعره العائلي وديوانيه الثامن والتاسع. والله المعين.

الصورة الشعرية في شعره العائلي وديوانيه الثامن والتاسع

وبإجمال فإنَّ الصورة الشعرية هي جنين الإبداع ينسجه المبدع بوعيه وبلا وعيه من مرغوبة ومرهوبة مصدوقة ومكذوبة فإن هو وفق في خلق ذلك الجنين خلقاً قادراً على الإيحاء والتأثير في الآخرين وأمكن له نقله إلى المتلقين لينبهروا به ويتعاطفوا معه ويستلهمون إيحاءاته الدافعة والرافعة فحينذاك تكون عملية الخلق الشعري والإفضاء التوصيلي قد أقامت بين المبدع والمتلقي فرداً أو جماعةً أو جمهوراً التصاقاً روحيّاً قوامه ذلك القضيب المغناطيسي الذي يسمّونه (الصورة الشعرية) لذلك فهي مركز الثقل ومحور التأثير الذي يُطلقه النَّصّ الإبداعي بين جمهوره حيث تتجلى مقدرة الصورة الشعرية على تجسيم المعنوي ليصير مادياً واستدعاء الماضي ليصير حاضراً

واستحياء الميت ليصير كائناً نابضاً بالحيوية والفاعلية. ولهذه الصورة الشعرية مجاليها بحسب عبقرية النسيج الشعري المؤطر لها والمتناسج معها فقد تصير المفردة الواحدة إطاراً مكمّلاً بصورة شعرية من مثل بيت البحتري عن إيوان كسرى بعد أن أدار الدهر له ظهره وابتزَّ منه محاسنه وحواشيه:

يتضنَّى من الكآبة أن يبدو
لعيني مصبّح أو ممسّي

فإن مفردة «يتضنَّى» تحمل شحنة إيحائية في تصوير الحالة النفسية للإيوان وكأنَّه إنسان حيّ ذو مشاعر وأحاسيس. وقد تكون الصورة مفتقرة إلى شطرة كاملة تؤطر جزئياتها وتقاسمها حتى يكتمل لها الإيحاء والتأثير كذلك البيت الذي قاله ابن الرومي مصوّراً خيال شبابه الذاهب كيف يتراءى أمام خاطره عند استرجاع ذكرياته:

وإذا تمثَّل في الضمير رأيته
وعليه أغصان الشباب تميد

فانظر كيف استطاعت مفردات أربع في عجز البيت أن تنهض بهذه الصورة الفنية التي لا مزيد على جماليتها

في تصوير الشباب الغائب. وقد تستغرق الصورة أبياتاً يسند بعضها بعضاً فيؤدي بيتٌ دوراً أساسياً فيها وتؤدي الأبيات بعده دوراً تكميلياً ينمنم ويأسر. يقول أبو العتاهية في تصوير انقياد الخلافة بعد وفاة الهادي ثالث ملوك بني العباس إلى ابنه المهدي أبي هارون الرشيد وقد كان محبوباً من دولته وشعبه:

أتــتــكَ الخــلافــةُ مــنــقــادةً
إليك تجــرِّرُ أذيــالــهــا
فــلــم تــكُ تــصــلــحُ إلا لــهُ
ولم يــكُ يــصــلــحُ إلا لــهــا
ولــو رامَــهــا أحــدٌ غــيــره
لــزلــزلــت الأرض زلــزالــهــا

والإنصاف يقتضينا عرفاناً لكل ذي حقّ بحقّه فنقول: إنَّ هذا النص مثل رائع من أمثلة تآزر علوم الإبداع من نغمية كوزن الخليل الذي تراه هنا وهو (المتقارب) وقد حمل المشهد بأكمله في تدافعٍ وإيقاع كأنه زورق إلى جانب فاعلية الوزن فاعلية النحو وهو مسؤول عن ترتيب المفردات. ثم ما يقدِّمه البديع في البيت الثاني من مقابلة:

فـلـم تـكُ تـصـلـح إلا لـه
ولم يـكُ يـصـلـح إلا لـهـا

وما يقدمه علم المعاني في البيت الثالث من إطناب بزيادة اللفظ على المعنى لفائدة محسوسة. وعلى ذكر فاعلية النحو هنا نشير إلى أهمية الجملة الحالية في النص وكأنها تؤدي دور الفنان الأساسي في رسم المشهد (إليك تجرِّر أذيالها). ذات التأثير الحميد الذي نلمسه للجملة الحالية في رسم الصورة الشعرية:

أتـاك الـربـيع الـطـلـق يخـتـال ضـاحـكـاً
مـن الحـسـن حـتـى كـاد أن يـتـكـلَّـمـا

في قصيدته عن ابنته (عالية) ديوان «النبع الظامي» احتشاد متوثب لتقديم صور فاتنة عن مجلاها في عينيه زهرةً في الخمائل. كوكباً فوق القوافل. ثم تأتي الصورة مكتملة في بيته الرابع «ابتسام النور الساري مع شدو العنادل».

في ديوانه الرابع «الخوف» وفي قصيدته إلى ابنه صالح في الثامنة من عمره يرسم صورة معاناته حفاظاً على ابنه وتهيئة جاهدة من أجل رغادة يومه وغدِه.

شـــددتُ إليك أشـــرعـــتـــي وحـــبّـــي
وصـنـتـك فـي الـعـيـون وفـي الـضـمـيـر

وهي صورة تذكرك بحال ابن زهر مع وحيده:

ولي واحـــد مـــثـــل فـــرخ الـــقـــطـــا
صـغـيـرٌ تخـلـف قـلـبـي لـديـه
وقـد تـعـب الـشـوق مـا بـيـنـنـا
فـمـنـه إليَّ ومـنـي إليه

وفي تهنئةٍ لأخيه فواز في زفافه «الديوان الرابع» (يا فارس العرس خيل الحبّ راكضةٌ).

ولم تنهض الشطرة الأخيرة من البيت تحليقا بالصورة واستكمالاً لإطارها فهو هنا زغلول ينهض به الشكير ليطير ولكنَّ القوادم والخوافي لا تزال خبيئة تنتظر ميقاتها للظهور والتحليق.

الديوان الخامس (قناديل الريح) يفتتح أغرودته لابنه (مُهنَّد) بهذه الصورة الفائقة الرائقة راسمة معنوية السَّعد وقد تجلَّت في أضواء:

(حدّق إلى السَّعد يهمي وهو أضواءُ).

مقطوعته في حفيدته (ماري) يفتتحها ببيته البكر وكثيرٌ من الشعراء يكون بيت قصيدهم هو الأول الفوّاح بعبق المشاعر والمضيء بإشراقات السرائر. ثم يأتي ما بعده تكراراً له وإضافة نغميةً لا أكثر:

تـــطـــلّ حـــفـــيـــدتي مـــاري
كـــــإطـــــلالـــــة نـــــوّار

فإنَّ مفردة (تطلُّ) هي أم هذه المقطوعة فتشعرك بالوقع السعيد لمرآها في حنايا جدّها وكأنَّما هي الكوكب المضيء لما حوله من غيهب. وفي ذات الديوان عن أمه وأبيه هاتان الصورتان:

يـا شـمـعـةً فـي ظـلام الـعـمـر تـغـمـرني
وبـسـمـةً فـي زمـان الـضـيـق والـغـمِّ

(أبي وأمي ثريَّات على مُدني).

وفي استجلائه وجه ابنته الصغيرة (مريم) تشبيه مجمل لو حذف أحد طرفيه لكان استعارة ولأمكن أن يكون صورة:

في كل أيام الحياة أراك كالقمر المنوّر

ومرةً أخرى يعود إلى الرابية ولكنها عودة الوداع الأخير وتغلي مراجل الحزن وهو يشيع عالمه الأكبر والأنور الذي احتضنه جنيناً فطفلاً فيافعاً فشاباً فكهلاً زائداً عنه كل ما يؤذيه ورائداً جالباً له كل ما يسعده ويبهجه. ومن كالأب؟ فلا عجب تتوالى هذه الصُّور عنه وفي لحظة الوداع:

مرَّ كالأمس كالسحاب الهتون
كالسفين البعيد بين عيوني
كلُّ شيء من المعالم يبدو
صورةً من ربيعه الميمون

وعنه أيضاً وهو في النصّ التالي يتوفق راسماً إطار مشهد الاحتضار شاخصاً في جزئيات من جزئيات المكان:

طير تعوّدني ينوح على الشجر
لم أدر أنَّ الطير ينذر بالقدر
الحقل صوَّح والبيادر من حجر
وضياء مسرجةٍ يمزّقها الضجر

وعمته مريم «البتول» الروض الجميل. تأوي إليه نفوس كل المتعبين:

أيامها مدن الفرح...

جعلت مباهجنا ملونةً

كما قوس قزح.

وتأتي قصيدته (ميرال) الحفيدة الأثيرة والنجمة المثيرة وتتفجّر شاعريته صوراً وأطيافاً وظلالاً حتى لكأنَّها السمفونية منداحة بالأشذاء والأصداء مطرزةً بدراما تزيد النص حيوية وفاعلية محتفظاً بها بل متهاجساً معها وهي تطالعه في أسفاره البعيدة منبعثةً من داخله مع ارتقاص جذوع وسعفات النخيل وإشعاعات القمر وقد اكتمل لهذا النص كل عناصر الجذب الآسر والتألّق الفواح. ولو أنَّ ليوناردو دافنشي عبقري الرسم الإيطالي أراد أن يلتقط هذه الصور في لوحةٍ أو لوحات لأعياه استيعابها والإتيان بها في مثل مقدرة المفردة اللغوية والسياق البلاغي الأخاذ الذي تحقق لهذا النص:

هي تشبه طيوف السنا أو عطر الآمال

طير البشاير خطاها تجيبه

ألقاكِ في وعد المطر حزن هَمّال

وألقاكِ في كل المجاني الحبيبة

جيتي منابع حب واستبشر الفال

وجيتي أحبك في ثواني عجيبه

ولو تسألك نجمة عن البدر وشْ قالْ

قولي تعشَّقني يبيني خطيبه

لا هزَّت جذوع النخل قلب مثَّال

تهتاج أشواقي واحسّك قريبه

محلاك يا غصن على الدوم تختالْ

محلى القمر فيكِ ونورك يذيبه

ميرال لمحةْ برق والحسن ميرال

اباركك بالله يصونك حبيبة

ونلتقط من قصيدته الطويلة إلى أبنائي صالح وإخوته هذا الفارع الرائع:

صاحبت بالأخلاق أسودْ وملوكْ

ومجدي كتاب في سنا الشمس مفتوح

و«رند» حفيدته بنت بكره رانيه كان قدومها العيد ولها أورق المهد فاحتفاءً بها يقول جدّها:

ولـتـقـبـسـي الحـب أزهـاراً مـفـوَّفـةً
فـي روضـة غـرسـهـا الإيـثـارُ والجـد
بـوركـت قـرَّة عـينٍ فـي نـواظـرنـا
أو غـيـمـةً فـي صـحـارى عـمـرنـا تـعـدو
فـلـتـهـنـئي طـفـلـتـي بـين السَّنـا فـرحـاً
ولـتـنـهـلي الخـيـر مِّمـا يـنـبـت الـورد
يخـتـالُ فـيـك نـدى أزهـار رانـيـتـي
وليدتي الـبـكـر والآمـال والحـمـدُ
سـلـمـت طـول المدى طـيـراً عـلى فـنـنٍ
فـغـرِّدي وامـرحـي يهـنـا بـك الجـدُّ

وعن صغيرته (مصباح الفرح):

يستأذن الصباح من ضيائها

مصباح فرحتي المنير

لا يشرق السَّنا إلا بها فإنها الشموس

والأقمار والبدور

صغيرتي قطعة الألماس

في بريقها المثير

وإنه لإنجاز رائعٌ لشاعرنا باشراحيل وهو ابن المدينة المترف الأنيق أن يتحفنا بديوانٍ أفرده لهذا الشعر الشعبي الملحون. وتوضيحاً لمكانته لديه وتعلقه القلبي بهذا اللون جعل عنوان الديوان مصوراً معبراً عن محتواه وإذا كان له في دواوينه عناوين تصوّر المعاناة من مثل (النبع الظامي). (الخوف). (قناديل الريح). (وحشة الروح). فإنَّ عنوان ديوانه هذا الثامن هو (بوح النسايم). وأنت تعرف طلاوة وطراوة النسمة الرطبة الندية حين تفضي لك بمكتومها وتبوح بأحاسيسها ومشاعرها:

(١) قصيدته (بليه) عن الدنيا استعراض فياض بدراما الذهاب والإياب والحوار ومن صورها:

يا طيفها جاني على صهوة سهيل

حطّت ركايب شمسها وأشرق الليل

نبلغ مدار الشمس نطويه طيّا

أنا أركب أبروق السَّنا طاهر الذيل

(٢) قصيدته مظفورة بالوضوح حتى التسطيح

وفي التصوير العابق الفائق:

دامك تبيْ ورد البساتين نقي
والمجد مثل الورد بالشوك مليان
واسمع على باب المعاريف دقي
والنبل في الأخيار دارٍ وبستان
قطر المطر يكثر على كثر دفقي
وشْ قيمة الديمه بلا مزنْ هتَّان

(٣) وفي قصيدته (طير الحرايز) هذان:

لا شاقني في نحيل الخصر طوَّف بي
وجه من البدر والأوراد ألوانه
شيّدت لك قصر وسط الجوف متغبّي
فيه الهنا والسَّنا والصدق بستانه

(٤) وفي قصيدته (يا مرجفين) هذه الشطرة الرائعة:

(مجدي ترى في طلعة الشمس مرسوم)

(٥) في قصيدته (إلى أبو نواف) وهي بمجملها آيات من إنجيل الأخلاق وفيها هذا:

ما يُرخص الغالي سواد العَتامة
تلقى اللآلي دايما بين الأصداف

(٦) قصيدته (يا طيب):

وحنّا ورثنا الوفا من ورد بستانه
وحنا غروس الندى نخله ورمَّانه
شعري مراكب وفا بالصدق معنية
تبحر على الموج أو عقل الحر ربانه

(٧) قصيدته عن «الخلي»:

والشوق يضحك للسَّهر

حتى القمر

حتى الشجر

صورة ولا كل الصور

وأقولْ لعيني أتأملي

(٨) قصيدته (وعد):

طير السّعد عنك مسافر على الدوم
وطيور سعدي فوق عالي جبيني

(٩) قصيدته (حسّ النور):

أخاف الشمس لا تطفي

بريق الحب في عينك

ولا تضوي الليالي بدور

وأخاف ما نعرف

الماسه من البلّور

وصوت البلبل الشادي

يبي يغرّد لكن مأسور

تعالي لا يغيب النّور

سرحت بالفكر والفكره

أخاف الشمس لا تطفي

يجف الورد في كفي

ومن عطفك ومن عطفي

نعود طيور

نجمع حبنا المنثور

ونمزج حسّنا الدافي

بحسّ النور

ثم نأتي إلى آخر مشوارنا الشعري مع شاعرنا باشراحيل فنبلغ ديوانه التاسع (وحشة الروح). وقبل ولوجي فيه أجدني بحاجة إلى كلمة محدودة عن الأسلوب شعراً كان أو نثراً فنرى الكثيرين ينسجون على أنوال غيرهم مكثرين أو مقلّين لكنهم مجرد أصوات تذوب في مجرى غيرها لأنَّها لا تمتلك بصمة شعرية خاصة ممَّا يجعلها متميزة عن غيرها.

وهناك أفذاذ قديماً وحديثاً رزقوا النكهة والنسيج اللذين يتميزون بهما عن غيرهم وسبيلهم في ذلك خصائص فنية لازموها بعد أن ابتكروها فكانت العلامة

المميزة لشعرهم حتى ولو قرأه القارئون غير منسوب إليهم. أبرز أمثلة هذا الطراز حديثاً: بدوي الجبل ونزار قباني وعبد الله البردوني فكأنّما شعرهم وضوح قسمات وتفرد ملامح كالشأن في ملامح وجوههم ونبرات أصواتهم. غير آبهين بمحاكاة أحد قديماً أو حديثاً شرقاً أو غرباً وهناك طراز آخر من الشعراء المتفردين بميزات وعلامات تراها في معمارهم الشعري. ولكنّك ترى إلى جانبها وقبلها ومعها ميزة الوضوح الرسالي وأعلام هذا الطراز حديثاً أيضاً: أبو ريشة ومحمد رضا الشبيبي ومحمد محمود الزبيري فلكل أسلوبه المائز له عن الآخرين ولكنهم مشتركون كلهم في الوضوح الرسالي.

إن الشعر عندهم ليس ترفاً ذهنياً ولا زيّاً أجنبياً ولكنه صوت حياة وجناح رسالة. وأرى شاعرنا باشراحيل من هذا الطراز ولك أن تقرأ قصيدته التي افتتح بها ديوانه التاسع إلى رئيس جمهورية الجزائر الأستاذ عبد العزيز بوتفليقة لترى هذا الذي أشرنا إليه في هذا المدخل.

إنّه عربي مسلم تنطلق شاعريته باسمةً أم عابسةً من هذا النبع وهذا المرجل. ومن صوره الشعرية فيها:

هـذا الأريـج وجـنّـات مـنـضَّـرةٌ
سـحـر الجـمـال مـثـيـرٌ فـي تـثـنّـيـهـا
صـوت الـبـلابـل أنـفـاس مـنـغـمـة
عـلى غـصـون تـدانـت مـن مجـانـيـهـا
هـذي الـعـروبـة والأدواء تـصـرعـهـا
عـزَّ الـشـفـاء فـقـل لي مـن يـداويـهـا
والخـوف أطـبـق كـالـديجـور فـي غـدنـا
كـأنَّ أعـمـارنـا بـالخـوف نـحـمـيـهـا

- وهذا الباشراحيل السليم القلب الكريم السجايا مبتلىً أكثر ما ابتلي به في هذه الدنيا غدر الأصدقاء وخيانة الأحباب وهو يقدّم في قصيدته (ملام) هذين البيتين:

كـنـت أسـقـي ونـبـتـة الـغـدر تـنـمـو
ولـبـعـض الـغـروس طـلـع وخـيـم
مـا تـوقـعـت بـعـد أنـداء قـلـبـي
أن أرى بـومـة الجـحـود تحـوم

ولله درّ شوقي حين قال: وصادق الحب يملي صادق الكلم. هو ذا يشيِّع إمام الحرم المكي بدموع التقوى وعصير القلب:

والخـــيـــر أصـــدق مـــن بـــكـــى
حـــزنـــاً وأولى مـــن حـــضـــر

كـــبـــريـــق حـــبَّـــات الـــنـــدى
أشـــرقـــت فـــي عـــين الـــقـــمـــر

دمـــع الـــنـــســـايـــم لم يـــزل
يـــنـــســـاب مـــن مـــقـــل الـــسَّـــحـــر

يـــا طـــيـــب قـــلـــبٍ قـــد ذوى
وربـــيـــع عـــمـــرٍ يُخـــتـــصـــر

وكلما عدتُ إلى ديوانه هذا التاسع واجهتني هذه الأبيات وإن لم أبحث عنها وإن لم أتشوّف إليها ص ٤١:

أيُّهـــا الـــنـــازفُ الـــذي صـــار جـــرحـــي
زدت جـــرحـــاً وكـــل آهٍ بـــجـــرح

قـــد رأتـــنـــي الجـــراح أحمـــل قـــلـــبـــاً
كـــلـــمـــا ازداد طـــعـــنـــه ازداد صـــفـــحـــي

فـــكـــأن الجـــراح تـــفـــرح عـــنـــدي
وكـــأنِّي حـــبـــيـــبـــهـــا وهـــي ربـــحـــي

يـــا ريـــاح الـــســـمـــوم أشـــعـــلـــت نـــاراً
فـــاتـــركـــي الـــنـــار تـــســـتـــلـــذّ بـــلـــفـــحـــي

أنـــت ضـــيـــف الـــكـــرام بـــين الحـــنـــايـــا
ولـــك الـــعـــمـــر كـــلـــه رغـــم بـــرحـــي
ولـــك الـــعـــذر حـــيـــث لا عـــذر أُبـــدي
ولـــضـــيـــفـــي أجـــيـــزُ قـــتـــلي وذبـــحـــي
اســـكـــنـــي يـــا جـــراح قـــلـــب سُـــهـــادي
وإذا شـــئـــت بـــين ليلي وصُـــبـــحـــي

ولست أدري أيضاً ما الذي يجعلني كلما التقيتها ألتصقُ على التو بأبيات مهيار وهي طويلة بقي في الذاكرة منها هذه التسعة:

يـــا ديـــار الحـــيّ مـــن جـــنـــب الحـــمـــى
عُـــدتِ ظـــنّـــاً بـــعـــدمـــا كـــنـــتِ حـــقـــيـــقـــه
خـــلـــتُ لَّما لم أطـــقْ حمـــل الـــنـــوى
أنَّ تـــلـــك الـــدمـــن الـــصـــمَّ مـــطـــيـــقـــه
لم أكـــنْ أعـــلـــمُ حـــتّـــى نـــحـــلـــتْ
كـــنـــحـــولي أنَّهـــا مـــثـــلي مـــشـــوقـــة
أيـــن جـــيـــراني بهـــا لـــهـــفـــي بهـــم
لـــهـــفـــة ســـكـــرتهـــا غـــيـــر مـــفـــيـــقـــة
شـــام أصـــحـــابي عـــلى كـــاظـــمـــةٍ
عـــارضـــاً يحـــمـــل وطـــفـــاء دفـــوقـــه

مـا ظـنـنـت الـرَّشـف محـظـور الـلَّـمـى

حـظـرة الخـمـرة حـتـى ذقـت ريـقـه

ارفـقـوا يـا ربَّـمـا ذاق الـهـوى

واثـق مـن قـسـوة ألا يـذوقـه

واقـسـمـوا قـلـبـيَ فـيـمـا بـيـنـنـا

لي فـريـقٌ وخـذوا أنـتـم فـريـقـه

حـيـث أيـامـي مـلـوكٌ كـلّـهـا

ومـن الأيـام أمـلاك وسـوقـه

ويتواصل التساؤل ما الرابطة بينهما أهي الأناقة في التعبير أم هو الجوى الشاغف من التياع وحزن ورحم الله شوقي صاحب البيت الفذ في الألم:

تـفـرَّدت بـالألم الـعـبـقـري

وأنـبـل مـا فـي الحـيـاة الألم

قصيدته الشاكرة للأستاذ علي العمير من أمزان القلب المدهق عرفاناً وحبّاً وهذا ما اخترناه منها:

رقـرِق الأنـسـام مـن نـفـحِ الـزهـور

وتـرنَّـح بـين أنـفـاس الـعـطـور

ديـــمـــةٌ تهـــمـــي عـــلى جـــدب المنـــى
أخـصـبـت مـن دمـعـهـا جـدب الـعـصـور
يـتـشـهّـى الـعـمـرُ مـا تـسـكـبـه
مـن عـبـيـر فـي الـشـرايـين نَـفُـور
كـيـف غـنَّـى الـدهـر فـي أحـداقـنـا
وتـراءى الـصـدق فـي نـبـض الـشـعـور
تـشـرق الـفـرحـة فـي أعـمـارنـا
كـربـيـع طـاف مـا بـين الـثـغـور
لـكـأنَّ الـعـمـر لـلـسـعـد الـذي
نـتـمـنَّـى وصـلـه جـسـر عـبـور
وكـأنّي فـوق أغـصـان الـشَّـذى
بـلـبـل غـرَّد فـي كـل الـطـيـور
وأمـامـي دوحـةٌ مـن ألـقٍ
أطـلـق الـصـبـح لـهـا وجـه الـسـفـور
فـاغـتـرف مـثـليَ مـن نـبـع الـسـنـا
ودعِ الماء أجـاجـاً فـي الـبـحـور
بـوركـتْ يـمـنـاك مـا أروعـهـا
حـين يـهـمـي قـطـرهـا شـلاَّل نـور

- وفي قصيدته (يامن توحّدنا):

كلّ الرياح التي راحت تبدّدنا

تبدَّدتْ

وغدتْ جرحاً يجدِّدنا

ونحن نصرخُ في تيه غدا مُدنا

يا مَن يوحدنا

أوقـــف هـــبـــوب الأســـى

مـــن وحـــشـــة الـــروح

دمـــع الـــفـــؤاد جـــرى

كـــدمـــاء مـــذبـــوح

مرنَّح الخطو حارت كل ملهمةٍ

وحيَّرت قبساً في البدر متقداً

يلامس الطير غصناً يابساً ولظىً

ويسأل الله في ضعف وتسبيح

ثمَّ يتعانق الحب والألم ويتحوّل الحزن والفرح إلى ظفيرة في أعماقه مكسوبة في كل أنفاسه يقول في قصيدته (الموعد):

إن تكن أنست ظلاً أو رأيت البدر غنّى

فلتكن أنت النشيد

ولتكن كالعيد في عين المعنّى

يا سماءً تعتلي فوق سماء

أنت إغراء إلى السبق البعيد

أول الخوف الظلام المنتشر

حين نمضي وعلينا من سنى نور القمر

هالة من عبق التاريخ والماضي المجيد

فاقرئي كلَّ التعاويذ وسيري

نحو عمري ومصيري

واسكني بين ظلال ونسيم

كل خلق آيل نحو الهرم

لا تخافي من تواري العمر في جوف السديم

بل من النار التي يقذفها

قلب الجحيم

حينما يترعنا كأس السكوت

حينما الدهر يموت

فتعالي خافقاً لا يستريح

أمهلي العمر الجريح

وتعالي نقبس النور رحيقاً وفتون

أو تعالي فرحةً بين العيون

نستردُّ العمر بشرى وندى

فهنا يولد ما ضاع سُدى

وهنا الدهر ابتدا

وهنا الخيرُ همى

فانظري صدق الرؤى

إنَّما الماضي هو الحاضر

والميلاد للأيام

والرحم المدى

ليتنا صرنا غدا)

قلنا عن مكة إنَّها في بحر قلبه البوصلة وفي برّ أسفاره القطبية فهو معها وهي معه سلوكاً وإبداعاً هوذا يحدّث موطنه (النخلة) رمزه الأثير:

سقيتُ نخلك من نهر الأغاريد
وعدتُ أسقيكِ من عيدٍ إلى عيد
سنى حجازك ضوء القلب يا وطني
وليل نجدك كحل الأعين السود
يا موطن الحبّ أيامي قد انبهرت
وأورقت نجمةٌ في صفحة البيد
وجدتُه والنَّدى وعدٌ على سفرٍ
محملاً بعطور الورد والعود

وفي الأخير نلتفت إلى الشخصية الموحية لهذه الدراسة التفاتة وداع فلا ننسى - وإن كنا قد قلنا عنها ما ينبغي أن يُقال:

إنَّها نبتةٌ من نباتات القرن العشرين الذي شهد

تسارعاً في المجالات العلمية يزيد على كل الحصيلة العلمية البشرية في تاريخها الطويل. واصطلى قومياً نيران أحزان قومه وعانى من رمادية أحلامها مثلما عانى في المجال الشخصي من غدرات الأصدقاء الزائفين فكان لذلك كله أن يترك أخاديده في رياض عواطفه وعلى حواشي أيامه ولياليه. وأن يترك ندوباً على أشرعته الإبداعية يكفيك منها مفردات وأوزان وقوافٍ كانت مزمار الأحزان الأثيرة. وقد أسلفنا القول عنها كما كانت لعناوين دواوينه القدرة العالية على استعراض محطاته عبر مساره المبارك الخيّر الميمون: ـ (معذبتي ـ الهوى قدري ـ النبع الظامي ـ الخوف ـ قناديل الريح ـ وما قناديلها إلا أنفاسه الشعرية ـ سيوف الصحراء ـ أقمار مكة ـ بوح النسايم ـ وحشة الروح).

وأقول مطمئناً إنَّني حين أُقارن بين ديوانه الستيني وديوانه الثلاثيني أخرج بلؤلؤتين أضعهما على جبينه. تشهد أولاهما بتألق معماره الشعري وتشهد الثانية بأنه متى ما أنطقته العبقرية فلديه الكثير والكثير من الروائع الوثابة الدافقة.

سبحان ربك ربّ العزة عمَّا يصفون

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

بعد عشاء الجمعة:

الثاني عشر من جمادى الأول ١٤٢٤هـ

الحادي عشر من يوليو ٢٠٠٣م

انتهت هذه الأمالي من لساني على قلم بنتي إيمان وتبييض أخيها أنور جزاهم الله عني خير الجزاء.

المحتويات

فنّية عاليةٌ ناشدةٌ الكمال .....

انفلاقة الكاذي .....

التقاطة الفلاش .....

الصورة الشعرية في شعره العائلي
وديوانيه الثامن والتاسع .....